البلاغة العربية

البيان – المعاني – البديع

أ. د/ خالد علي حسن الغزالي

أستاذ الأدب والنقد في جامعة صنعاء

الطبعة الأولى

1443هـ - 2022م

البلاغة العربية

البيان – المعاني – البديع

أ. د/ خالد علي حسن الغزالي

أستاذ الأدب والنقد في جامعة صنعاء

1443هـ – 2022م

عنوان الكتاب: البلاغة العربية: «البيان – المعاني – البديع».

المؤلف: أ. د/ خالد علي حسن الغزالي.

حجم الكتاب: 14 x 21 سم.

الصف والتنسيق والإخراج الفني: أشرف علي الحافلي 771555206

الطبعة الأولى

1443هـ – 2022م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق بدون إذن خطي من المؤلف، إلا في حالة الاقتباس المختصر والإحالة إليه.

أشرف الحافلي

لخدمات الطباعة والتنسيق والفهرسة

00967-771555206

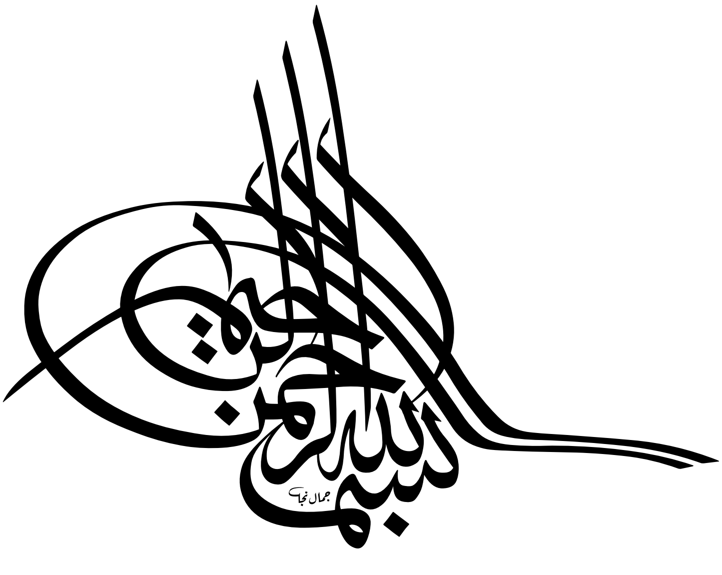
بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد:

الفصاحة، البلاغة، الأسلوب

في هذا التمهيد نتناولُ كلاًّ من الفصاحة والبلاغة والأسلوب، بالتوضيح والتفصيل المناسب وذلك في ثلاث مسائل: المسألة الأولى في الفصاحة، والمسألة الثانية في البلاغة، والمسألة الثالثة في الأسلوب.

المسألة الأولى: الفَصَاحَةُ:

الفصاحة في أصل الوضع اللغوي: تطلق على الظهور والبيان. فهي من قولهم: "أفْصَحَ أو فَصُحَ الصبِّيُّ في منطقه"؛ إذا بانَ وظهر كلامه. "وأفصَحَ الصُّبحُ"؛ إذا ظهر ضَوْؤُهُ واستبان[1] و"فَصُحَ اللَّبَنُ"؛ إذا أُزيلَت الرَّغْوَةُ من سطحه فبانَ وظهَرَ[2]. وفي التنزيل قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)**﴾ [القصص: 34]، أيْ أبينُ منِّي منطقاً وأظهر منِّي قولاً.

والإفصاح: الإبانة يُقالُ: فَصُحَ الرَّجُلُ فَصَاحةٌ فَهُو فصيحٌ[3].

والفصاحة في الاصطلاح: هي الألفاظ البيّنة الظاهرة المعنى، المألوفة الاستعمال، الخفيفة على اللسان، السليمة من تنافر الحروف والكلمات، الجارية على

---

(1) ومنه المَثَل: "أفصحَ الصبحُ لذي عينين". وهذا المثَل يُضرَب للشيء ينكشف بعد استتاره.

(2) ومنه المَثَل: " وتحت الرغوة اللبن الفصيحُ. وهذا المثل يُضرَب للشيء ظاهره غير باطنة.

(3) ويُجْمَعُ "فَصيحُ" على فُصَحَاء، وفِصَاحِ وفُصُح. والأُنثى فصيحةٌ، وهُنَّ فَصَائح.

قوانين اللغة وقواعد النحو المُعتَبَرة عند الجمهور، المتبادرة إلى الفهم، الخالية من التعقيد اللفظي والمعنوي.

وهي تأتي وصفاً للكلمة الواحدة، ووصْفاً للكلام، ووصْفاً للمتكلمْ[1]. فيقال: كلمةٌ فصيحة وكلامٌ فصيحٌ، ومتكِّلمٌ فصيحٌ. ونُوَضِّح ذلك فيما يلي:

أ- فصاحة الكلمـة:

فصاحة الكلمة تتحقق بسلامتها وخُلُوِّها من أربعة عيوب هي: تنافر الحروف، وغرابة الاستعمال، وكراهة السَّمع لها، ومخالفة القياس اللغوي الصرفي.

1- سلامتها من تنافر الحروف:

تنافر حروف الكلمة هو وَصْفٌ فيها يجعلها ثقيلة على اللِّسان، يصعُبُ النُّطْقُ بها. وذلك بسبب اجتماع حروف فيها يحصل من اجتماعها عُسْرُ النُّطْق بالكلمة. ويقال إنَّ منشأ ذلك تقارب مخارج الحروف. أو طول الكلمة غالباً[2].

وهذا التنافر نوعان: تنافرٌ شديدٌ غايةٌ في الثّقل، وتنافرٌ خفيفٌ.

- **فالتنافر الشديد:** هو ما تكون الكلمة بسببه متناهية في الثقل على اللسان وصعوبة النطق بها.

مثل كلمة: (الهُعْخُع)، وهو: نباتٌ ترعاه البائهم، حيث رُوي أن أعرابياً سُئل عن

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ص7 وما بعدها.

(2) قلنا: غالباً؛ لأنه ليس تنافر الحروف موجبه دائماً قرب مخارج الحروف؛ إذ قربها لا يوجبه دائماً، فهاهي كلمة "بِفَمِي" حسنة وحروفها من مخرج واحد وهو الشفة، وأيضاً ليس موجب التنافر طول الكلمة وكثرة حروفها دائماً.

ناقته فقال: "تركتها تَرعى "الهُعْخُع"، فهذه اللفظة متناهية في الثِّقل والتنافر، مستكرهة لِعُسر النطق بها.

ومثلها كلمة: (صَهْصَلِق)، يقال لغة: "رجُلٌ صَهْصَلِقُ الصّوتِ"؛ إذا كان صَخَّابا ذا صوت شديد.

ومثل كلمة: (اطْرَغَشْ) يقال: اطرغَشْ المريضُ، إذا بَرِيَ من مرضه، وإذا قام وتحرّك ومشى.

فهذه الكلمات تجدها أثناء النطق صعبه، ومرورها على السمع ثقيلة.

- **والتنافر الخفيف:** هو دون ذلك.

مثل كلمة: (النُّقاخ)، يقال لغة: "ماءٌ نُقَاخٌ"، إذا كان ماءً عذباً.

وكلفظ: (مُسْتَشْزِرَات) بمعنى مرتفعات في قول امرئ القيس:

غَـــدَائِرُهُ مُسْتَشْـــزِرَاتٌ إِلَـــى الْعُـــلاَ تَضِـلُّ الْمَـدَارِي[1] فـي مُثَنًّـى وَمُرْسَـلِ[2]

---

(1) المَدارِي: جمعُ مِدْراة، والمِدْراةُ: ما يُعْمَلُ من حديد أو خَشب على شكل سِنٍ أو أكثر من أسنان المُشْط وأطول منها، يُسرَّحُ بها الشَّعْرُ المُتَلَبِّدُ، وفي الحديث النبوي: ((أَنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ على رسول الله -ﷺ- من جُحْرٍ في حُجْرَةِ النبي -ﷺ- ومَع النبي -ﷺ- مِدْراة يَحُكَّ بها رَأسَهُ، فقال النبي -ﷺ- لو عَلِمْتُ أَنَّكَ تنْظُرُ لَطَعَنْتُ بها في عيْنكَ إنما جُعِلَ الاستئذانُ من أجْلُ البَصَر)) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الاستئذان، وقال: هذا حديث حَسَنٌ صحيحٌ.

(2) غدائره: أي ظفائره، أو ذُؤاباتُه المَضْفُورة، مُفرَدُه غديرة، وهي الشعر المشدود بخيوط على الرأس. مُسْتَشْزِرَات: أي مُنفتِلات إلى أعلى، يقالُ: اسْتشزَر الحبلُ، إذا انْفتل إلى فوق وهو الفتلُ الشَّزرُ. وتضلُ.

الْمَدَارِي: أيْ: تَضيعُ أو تغيب المَداري. والْمُثَنَّى: الْمُنعطفُ بَعْضُه على بعض. وضده الْمُرسل: وهو المتروكُ على طبيعته دُون ضفر ولا تثنيَة ولا تجعيد.

=

فموضع الشاهد على التنافر في هذا البيت هو لفظة: "مُسْتَشْزِرَات"؛ فهذه اللفظة أقل ثقلاً إلا أنها وإن كانت أخف من سابقاتها، فإنَّ تنافر الحروف فيها أدَّى إلى صعوبة التلفظ بها وهذا بدوره أنقص من فصاحتها، وقلَّل من فصاحة البيت وجماله.

ومثلها كلمة: "الخَنْشَلِيل" بمعنى: الْمُسِن من الناس والإبل، وبمعنى الجيِّد الضرب بالسيف.

ومثل كلمة: (الْعَشَنْزَر) وهي بمعنى الشَّديد الْخَلْقِ العظيم من كلّ شيء.

ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة في الكلمة سوى ما يَحسُّ به الذَّوق السَّليم المكتَسَب بطول النَّظر في كلام بلغاء العرب وممارسة أساليبهم. ومن علامات التنافر في حروف الكلمة أن يصعُب على معظم ألسنة الناطقين بالعربية النُّطقُ بها[(1)]

2- سلامتها من غرابة الاستعمال:

والغرابة هي: كون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مألوفة الاستعمال عند العرب الفصحاء؛ حتى لا يُفهم المراد منها؛ لندرة استعمال الكلمة عند العرب، أو لاشتراك اللفظ بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، أي أنّ سبب الغرابة شيئان:

=

فالشاعر هنا يصف غزارة ووفرة شعر ابنه عمِّه، فيقول: إن ابنة عمه شعرها كثيف، ولكثرة شعرها بعضه مفتول مرفوع إلى فوق، وبعضه مثنى، وبعضه مرسل.

(1) والثقل الذي لا يضجر اللسان لا يضر، نحو "ينلنه" في قول زهير: ومن هاب أسباب المنايا ينلنه.

السبب الأول: نُدْرة استعمال الكلمة عند فُصحاء العرب، وعدم تداولها في كلامهم وشعرهم ونثرهم، فهي غير ظاهرة المعنى، ويُحتاجُ في معرفة معناها إلى كثرة البحث والتفتيش في المعاجم والقواميس وكتب اللغة.

ومثَّلوا للغريب النادر الذي معناه ليس ظاهراً، بسبب قلَّة الاستعمال، بكلمة (تكأكأتُم)، وكلمة (افرنقعُوا).

فقد رُوي أن عيسى بن عمر النحوي سقط عن حمار فاجتمع عليه الناس فقال: "ما لكم تَكَأكَأتُمْ عليَّ تَكَأكَأتُمْ على ذي جِنَّة؟ افرنقعوا عنْي"[1].

فلفظة: "تكأكأتُم" كلمة غريبة ليست ظاهرة المعنى، ولا تُفهم إلا بعد كثرة البحث والتفتيش في المعاجم والقواميس، والسبب قلَّة استعمالها، وكذا لفظه "افرنقعُوا".

ومثل كلمة "الساهور" بمعنى الهلال. وكلمة "مُسْحَنْفِرَة" بمعنى "مُتَسِعَة". وكلمة "بُعَاق" بمعنى" مطر". وكلمة "جَرْدَحْل" بمعنى "الوادي".

وعليه؛ فالكلمة التي يُعرفُ معناها دون أنْ يلجأ السامع إلى البحث والتنقيب عنه في كتب اللغة فإنَّها تُعتَبر فصيحة، أمَّا إذا لم يتيسر له معرفة معناها إلاَّ بالبحث والتنقيب عنه في كتب اللغة فهذه ليست بفصيحة.

والسبب الثاني: تردد الكلمة بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، وذلك في الألفاظ المشتركة مما يؤدي إلى صعوبة إدراك المراد من الكلمة في السياق الذي ترد فيه، وحيرة السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة[2].

---

(1) تكأكأتُم: اجتمعتم. وذو جِنّة: مجنون. وافرنقعوا عني: تَنَحُّوا وانصرفوا.

(2) ويحتاج التوصل إلى المراد منها في الكلام إلى تخريج مُتكَلَّف بعيد.

ومثلوا لهذا بوصف الأنف بكلمة "مُسَرِّج" من قول رؤبه بن العجَّاج:

ومُقْلَـــــــةْ وحَاجِبــــــاً مزججــــــاً   وفَاحِمــــــاً ومَرْسِــــــناً مُسَــــــرَّجَا[1]

والشاهد فيه الغرابة في كلمة "مُسَرِّج" لاختلاف أئمة اللغة في تخريجه، فلا يُعلم ما أراد به. فقال ابنُ دُريد: هو من قولهم للسِّيوف "سُريْجيَّة"؛ أي: منسوبة إلى قَيْن أيْ حدّاد يُسمّى سُرَيجاً، فهو يريد تشبيه الأنف في دقَّته واستوائه بالسيِّف السُّرَيجي، وهذا القصد على ما تراه وحشي غريب. وقال ابنُ سيدة، صاحبُ المحكم: هو من السِّرَاج، فهو يريد تشبيه الأنف في بريقه ولمعانه بالسِّراج.

فلهذا يحتار السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة؛ لتردد الكلمة بين معنيين بدون قرينة تُعيِّن المقصود منهما، فلأجل هذا التردد، ولأجل أنَّ مادة "فَعَّلَ" تدل على مجرد نسبة شيء لشيء[2] لا على النسبة التشبيهية كانت الكلمة غير ظاهرة

---

(1) المقلة: شحمة العين: والحاجب معروف، والمُزجَّج: المقوس مع طول ودقة في طرفه. والفاحم: الأسود الذي لونه كلون الفحم؛ وأراد شعراً فاحماً فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامة. والمرسن: بفتح السين وكسرها الأنف؛ وصفه بكونه مسَرَّحاً، وقد اختلف في تخريج هذا الوصف، فقيل: من قولهم سيوف سريجية منسوبة إلى قين يقال له سريج، شبه بها الأنف في الدقة والاستواء، وقيل: من السِّراج فهو يريد تشبيه الأنف في بريقه ولمعانه بالسِّراج، أو من قولهم سَرجَّ الله وجهه إذا بهجة وحسنه، وهو قريب من قولهم سرج وجهه، بكسر الراء، أي حَسُنَ. والمعنى: أنَّ لهذه المرأة الموصوفة مقلة سوداء، وحاجبها مدققاً مقوساً، وشعراً أسوداً، وأنفاً كالسيف السريجي في دقته واستوائه، أو كالسراج في بريقه وضيائه.

(2) مادة (فَعَّلَ) بالتشديد إنما تدل فقط على مجرد نسبة شيء إلى شيء، ولا تدل على التشبيه، يُقالُ: كَفَّرَ فلانٌ فلاناً أو فسَّقه نسبة إلى الكفر، أو الفسق، فهو مُكَفَّر أو مُفسَّق؛ أي منسوب إلى الكفر أو الفسق، أما النسبة التشبيهية وهي أن يكون المنسوب شبيهاً بالمنسوب إليه، فلا تدل عليه =

الدلالة، ومن ثمَّ فإنَّها غريبة مفتقرة إلى صفة الفصاحة[1].

وأمَّا تردد الكلمة بين معنيين أو أكثر مع القرينة فلا غرابة؛ كلفظة "عزَّر" في قوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)**﴾ [الأعراف: 157]، فإنها مشتركة بين التعظيم والإهانة، ولكن ذكر النصر قرينة على إرادة التعظيم.

3- **سلامتها من كراهة السمع لها:**

كراهة الكلمة في السمع هي أن تكون بنية الكلمة من حروف يشكل التئامها صيغة لفظية خشنَةً وَحْشِيَّة غليظة في السمع، تأنفها الأذواق، وتستثقلها الطباع، وتمجُّها الأسماع وتنبو عنها كما تنبو عن الأصوات المنكرة.

ومثَّلوا لهذا العيب، بنفور السمع عن كلمة (الْجِرِشَّي) بمعنى "النفس" فعابوا على أبي الطيِّب المتنبي استعمالها في قوله يمدحُ سيف الدولة:

مُبَارَكُ الإِسْمِ أغَرُّ اللَّقَبْ   كَرِيمُ الْجِرِشَّي شَرِيفُ النَّسَبْ[2].

=

المادة المذكورة؛ فأخذ ذلك منها بعيد، لهذا كان هذا اللفظ غريباً غير ظاهر الدلالة لعدم استعماله عند العرب بهذا المعنى.

(1) أي: لفظه مسرج غير ظاهرة الدلالة على ما ذكر؛ لأنّ "فَعَّلَ" إنما يدل على مجرد النسبة وهي لا تدل على التشبيه، فأخذه منها بعيد؛ لهذا أدخل الحيرة على السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة لترددها بين معنيين أي أكثر بلا قرينة.

(2) مبارك الاسم: لأن اسمه عليّ من العلوّ. وأغرُّ اللقب أي مشهوره؛ لأنه سيف الدولة، والأغر من الخيل الأبيض الجبهة ثم استعير لكل واضح معروف. وكَريمُ الجِرِشَّي: أي كريم النفس.

فهذه اللفظة وأمثالها ممَّا لا يستسيغها الذوق، ويأنف منها الطَّبع، ويمجُّها السَّمع وينْفِر منها كما ينفر من سماع الأصوات المنكرة(1).

والسبب: غرابتها وغلظتها ووحشيَّتها.

4- **سلامتها من مخالفة القياس اللغوي:**

مخالفة الكلمة للقياس اللغوي تكون بِسَوْقِهَا مخالفةً للقياس النحوي أو الصَّرفي؛ أي بكونها شاذَّة وجارية على خلاف القانون النحوي أو الصَّرفيّ، المستنبط من كلام العرب.

ومن أمثلة ذلك: فكُّ الحرف المضعَّف في الكلمة التي يقتضي القياسُ فيها إدْغامّهُما بحرف مُشَدَّدٍ، نحو: كلمة "الأجْلَلِ" والقياسُ أن يُقالَ فيها "الأجَل". كما في قول الشاعر أبي النّجم:

الحَمْـــــدُ لِلَّهِ الْعَلِـــــيِّ الأَجْلَـــــل   الوَاحِـــــدِ الفَـــــرْدِ القَـــــدِيمِ الأَوَّلِ

فالشاهد هنا هو مخالفة القياس اللغوي في قوله: "الأجْلَل" إذ القياس "الأجلّ" بالإدغام ولا مُسَوَّغَ لِفَكِّ الإدغام.

---

(1) وذلك لأن الألفاظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما يُستلذ سماعه، ومنها ما يُكره سماعه، فالذي يُطرَبُ لصوت البُلبُل وينْفر من أصوات البُوم والغِربان يَنْبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة خشنة وحَشِيَّة يستثقلها الطبع، وبعض علماء البلاغة يجعل هذا العيب الذي هو "كراهة الكلمة في السمع" داخلاً ضمن العيب الذي قبله وهو "غرابة الكلمة"؛ وذلك لأن استثقال الطبع لما يُسْمَع لا يُتصوَّر إلا من جهة غرابة الكلمة ووحشيتها، ولذلك جعل بعضهم شروط فصاحة الكلمة ثلاثة، ولم يخص شرط "خلوص الكلمة من الكراهة في السمع" بذكر مستقل؛ لأنَّ في ذكر الغرابة غُنية عن ذكره.

ومثل استعمال هَمْزَةِ القطعِ بدل همزة الوصل، واستعمال همزة الوصل بدل همزة القَطْعِ ويكثُرُ مثلُ هذا في الشّعرِ لِمُرَاعَاةِ الوزن. ومنه قول الشاعر جميل بثينة:

أَلاَ لاَ أَرَى إِثْنَـــــيْنِ أَحْسَـــــنَ شِـــــيمَةً   عَلَـى حَـدَثَانِ الـدَّهرِ مِنّـِي وَمِـنْ جُمْـلِ[1]

فالشاعر هنا خالف القياس اللغوي باستعمال همزة القطع بدل همزة الوصل؛ حيث قطع همزة "اثنين" مع أنّها همزة وصل.

فهذا وأمثاله قبيح يشين الكلام، ويُعتَبر شذوذاً، وجارٍ على خلاف القانون الصَّرفي المستنبط ويستثنى من ذلك ما ثبت استعماله لدى العرب مخالفاً للقياس ولكنّه فصيح[2].

وجملة القول: إنَّ فصاحة الكلمة تكون بسلامتها من تنافر الحروف لتكون رقيقة عذبة تخف على اللسان، ومن الغرابة بأنْ تكون مألوفة الاستعمال جَرَتْ على الألسنة، ومن الكراهة في السمع حتى لا تمجها الأسماع وتستثقلها الطباع، ومن مخالفة القياس حتى لا تكون شاذَّة.

فإذا لم تسلم الكلمة من هذه العيوب الأربعة، كانت غير فصيحة، فاللازم على الفصيح اجتناب هذه العيوب.

---

(1) الشيمة: الخلق. وحدَثان الدهر: نوائبه. وأراد بكلمة "جُمْل" فَرَسَة أو جَمَلَه.

(2) مثل كلمة: "نواكس" جمع "ناكس" وصفاً لمذكّر عاقل، فجمع ناكس على نواكس مِمّا استُعْمِل شاذاً عن القياس عند العرب، كما قالوا في فارس فوارس، وفي هالِكٍ هَوَالِكَ.

ب- فصاحة الكلام:

فصاحة الكلام أو التركيب تَتَحقَّق بسلامته وخُلُوَّه من سبعة عيوب هي:

عدم فصاحة مفرداته التي يتألَّف منها، وتنافر الكلمات مجتمعة داخل السياق، وضعف التأليف والتعقيد اللفظي، والتعقيد المعنوي، وكثرة التكرار غير المفيد، وتتابع الإضافات.

فإذا كان في الكلام أحد هذه العيوب السبعة كان غير فصيح. ولذلك قالوا: لا بُدَّ لكون الكلام فصيحاً من أنْ تتوفر فيه هذه الشروط، ونفصلها بإيجاز فيما يلي:

1- <u>سلامته من عدم فصاحة كلماته التي يتألَّف منها:</u>

وذلك بخُلُوَّه من عيوب الكلمة التي تقدَّم ذكرها. فإذا اشتمل كلامٌ على كلمة غير فصيحة – كما تقدّم – سقط الكلام عن الفصاحة.

2- <u>سلامته من تنافر الكلمات عند اجتماعها ولو كانت مفرداتها فصيحة:</u>

وتنافر الكلمات: هو وصفٌ في كلمات التركيب الواحد، يعرض للكلمات مجتمعة عند اتصال بعضها مع بعض، فيُسبِّب ثقلها على السَّمع، وتعثُّر اللسان عند النطق بها مجتمعةً، وإنْ يَصْعُب على معظم ألسنة الناطقين العربية النُّطقُ به.

وقالوا إنَّ سبب تنافر المفردات السياق هو إمَّا تجاوُر كلمات حروفُها متقاربة وقد تبيّن البلاغيون أنَّ تنافر الكلمات عند اجتماعها على ضربين:

أ- شديد الثِّقَل عسر النطق:

ومن الأمثلة التي ذكروها في هذا، ما أورده عَمْرو بن بحر الجاحظ من شعر بشأن قَبْر حَرْب بن أميَّة بن عبد شمس:

وقَبْـــــرُ حَــــــرْبٍ بِمَكَــــــانٍ قَفْـــــرُ   ولَـــيْسَ قُـــرْبَ قَبْـــرِ حَـــرْبِ قَبْـــرُ[1]

فالتنافر الشديد في كلمات الشطر الثاني من البيت أحدَث فيها ثِقَلاً شديداً على اللِّسان وصعوبة النّطقُ بها متتابعة. وقد قيل: إنَّ هذا البيت لا يتهيَّأ لأحد أنْ ينشده ثلاث مرات متواليات دون أن يَتَتَعتَع – أي يتعلثم– ويغلط فيه، لأنَّ نفس اجتماع كلماته، وقرب مخارج حروفها يُحدثان ثِقَلاً ظاهراً على اللسان والسمع معاً، مع أنَّ كلِّ كلمة منه لو أخذت وحدها كانت غير مستكرهة ولا ثقيلة.

ب– خفيف الثِّقَل:

ومن الأمثلة التي ذكروها في هذا، قولُ أبي تمَّام:

كَـــرِيمٌ مَتَـــى أَمْدَحْـــهُ أَمْدَحْـــهُ والْـــوَرَى   مَعِـــي وَإِذَا مَـــا لُمْتُـــهُ لُمْتُـــهُ وَحْـــدِي[2]

وقد جاء ثِقَلُه من تكرير لفظ " أَمْدَحْهُ" بما فيه من حاء وهاء؛ لما بين الحاء والهاء من التنافر للجمع بينهما وهما من حروف الحلق.

ومثل ما رُوِي من أنَّ بعض الوعاظ في كلام أورده قال: "حتى جنأت وجَنات جنّات الحبيب" فلمَّا سمعه بعض الحاضرين صاح، وقال: "سَمِعْتُ جيمّا في جِيمٍ فَصِحْتُ"

---

(1) حرب: هو حرب بن أمية بن عبد شمس. وقفر: خال من الماء والكلأ، وقد رُفع لفظ "قَفْر" مع أنه نعتٌ للفظ "مكانٍ" لضرورة الشعر، وخرّجوه على أنّه من قبيل الصفة المقطوعة عن موصوفها، أو هو خبر والباء بمعنى في، أي: في مكان قفر". وكلمة "قبر" (الأخيرة): اسم ليس مؤخر. و"قبر": خبرها مقدم. وقد جاء الثقل من تكرار الراء والباء في البيت.

(2) أي هو كريم إذا مدحته وافقني الناس على مدحه ويمدحونه معي لإسداء إحسانه إليهم كإسدائه إليَّ وإذا لمته لا يوافقني أحد على لومه لعدم وجود المقتضي للوم فيه.

3- سلامته من ضعف التأليف في الكلام:

وضعف التأليف هو كون تركيب الكلام مخالفاً للمشهور من قواعد اللغة المطَّردة المُعتَبَرة عند جمهور العلماء(1).

مثال ذلك: الإتيان بالضمير قبل ذكر مرجعه لفظاً ورتبةً وحكماً في غير أبوابه(2).

---

(1) أيْ أن يكون تأليف الكلمات في الجمل أو إجراؤها الإعْرَابي على خلاف المشهور المتَّبع من قواعد النحو، أو فيه لحْنٌ نحويّ أو صرفي؛ كعوْد الضمير على مُتأخرٍ لفظاً ورُتبةً، بينما الأَصْل أن يعود الضميرُ على مُتَقَدّمٍ في اللفظ أو الرتبة. وكاستعمال الضمير المنفصل مع إمكان استعمال الضمير المتّصل. واستعمال الضمير المتّصل في حال وجُوبِ استعمال الضمير المنفصل. وكنصْب الفعل المضارع أو جزمُهُ بدون ناصب أو جازمٍ. وكتقديم غير الأَعْرَف في الجملة الاسميَّة على الأَعْرَفْ. وكتقديم المعمول على عامله مع عدم جواز ذلك، أو مع وجود مقتض لَهُ بلاغيّاً. وكمجيء الضمير المتَّصل بعد أداةِ الاستثناء "إلاَّ" وكحذف نون "يكن" في الجزم حين يليها ساكن.

(2) صاحب الضمير أو مرجعه يكون مُؤخَّراً في اللفظ والرتبة في سبعة أبواب حصراً؛ هي:

أحدها: بابُ ضمير الشأن: نحو: "هُوَ زَيْدٌ قائِمٌ" فالضمير "هو" مُفسَّرٌ بالجملة بعده فإنها نفسُ الشأن. ومنه قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)} [الإخلاص: 1]، ومنه قوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ} [الحج: 46].

والثاني: أن يكون مُخْبَراً عنه بمفسِّره: نحو: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الجاثية: 24]، أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا.

والثالث: الضمير في باب: نِعْمَ وبئسَ": كقوله تعالى: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50)} [الكهف: 50]، فإنه مُفَسَّرٌ بالتمييز. ونحو: "نِعْمَ رَجُلاً" ((ففي نِعْمَ ضمير مستتر هو الفاعل ويعود على "رجلاً"؛ "ورجلاً": هو التمييز)).

والرابع: مجرور رُبَّ: نحو: "رُبَّهُ رَجُلاً". فإنه مفسَّر بالتمييز قطعاً.

=

أي: رجوعُ الضمير على مُتأخِّرٍ لفظاً ورُتبةً، بينما الأصلُ أن يعود الضميرُ على مُتَقَدِّمٍ في اللفظ أو الرتبة، كما في قول حسّان بن ثابتٍ يرثي مُطْعِمَ بن عَدِيّ:

وَلَـوْ أَنَّ مَجْـداً أَخْلَـدَ الـدَّهْرَ وَاحِـداً مِـنْ النَّـاسِ أَبْقَـى مَجْدُهُ الـدَّهْرَ مُطْعِمـاً[1]

ففي عجز البيت أتى الشاعر بالضمير (الهاء في مجده) قبل ذكر مرجعه "مطعماً". وهكذا فعجز البيت غير فصيح لضعف التأليف فيه، وذلك بمخالفته القواعد النحوية؛ لأنه أعاد الضمير في كلمة "مَجْده" على متأخِّرٍ لفظاً ورُتبة وهو "مُطْعِماً"؛ حيث تقدم الضمير على صاحبه، فالضمير في "مَجْده" يعود على مطعم، وهو متأخر

=

والخامس: الضمير في التنازع إذا أعملت الثاني واحتاج الأولُ إلى مرفوع: نحو: "قَامَا وَقَعَدَ أَخَوَاكَ". فإنَّ الألف راجعة إلى الأخوين.

والسادس: الضمير المُبْدَلُ منه ما بعده. كقولك في ابتداء الكلام: "ضَرَبْتُهُ زَيْداً" وكقولهم: "اللهُمَّ صَلِّ عَلَيْه الرَّؤفِ الرَّحِيمِ".

والسابع: الضمير المتصلُ بالفاعل المقدَّم العائد على المفعول المؤخر، وهو ضرورة على الأصح. كقول الشاعر:

جَـزَى رَبَّـهُ عَنِّـي عَـدِيَّ بَـنْ حَـاتِمٍ جَـزَاءَ الْكِـلاَبِ الْعَاوِيَـاتِ وَقَـدْ فَعَـلْ

فأعيد الضمير من "رَبَّهُ" إلى عدىّ وهو متأخر لفظاً ورتبه. وقد جمع بعضهم هذه الأبواب السبعة بقوله:

ومرجـع الضـمير قـد تـأخَّرا لفظـاً ورتبـة وهـذا حصـرا
فـي بـابِ نِعْـمَ وتنـازُعِ العَمَـل ومُضـمَر الشَّـأن ورُبَّ والبَـدَل
ومُبْتَـدأ مُفسّـرّ بـالخبَر وبـابُ فاعـل بخلـف فـاخبر

(1) يرثي مُطْعم بن عَديّ أحد رُؤساء المشركين، وكان يُدافع عن الرسول -ﷺ-. ومعنى البيت: ولو أنَّ ما يفعله الإنسان من فعال الخير وما يقدمه من بر مهما كان عظيماً، لو أنَّ هذا المجد جعل من يتصف به يخلُد طوال الدَّهر في هذه الدنيا، لكان مَجْدُ مُطْعِمِ بن عديّ جعله خالداً، ولكان أولى الناس بالخلود؛ لأنه حاز من المجد ما لم يحزه غيره.

على الضمير في اللفظ؛ كما ترى في البيت؛ لأنّ التقدير: لأبقى مَجْده مطعمٍ مطعماً، كما أنَّ مطعماً أيضاً متأخر في الرتبة؛ لأنَّه مفعول به ورتبته التأخيرُ. فعاد الضمير على متأخر لفظاً ورتبه، وهذا من العيوب المخلَّة بالفصاحة؛ لأنه على خلاف قانون التأليف المتّبع المشهور في العربيّة.

ومثل مجيء الضمير المتَّصل بعد أداةِ الاستثناء "إلاَّ" كقول الشاعر:

وَمَـــا نُبَـــالِي إِذَا مَـــا كُنْـــتِ جارَتُنَـــا أَلاَّ يُجَاوِرَنَـــــــا إلاَّكِ دَيَّـــــــارُ

فجاء بالضمير المتصل بعد "إلاَّ"، والأصل أن يقول: إلاَّ إيّاك، ولكن خالف القاعدة لضرورة الشعر.

4- سلامته من التعقيد اللفظي[1]:

والتعقيد اللفظي هو كون الكلام خفيَّ الدلالة على المعنى المراد منه بسبب عدم ترتيب ألفاظه على وفق ترتيب معانيه؛ أي جعل الكلمات في جملة الكلام مرتَّبةُ على غير الترتيب الذي يقتضيه نظام الكلام وتأليفهُ في اللسان العربيّ. كتأخير الكلمات أو تقديمها عن مواطنها الأصلية؛ كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول. وكالتشتيت في الروابط بين عناصر الجملة الواحدة، أو الْجُمَل في الكلام الواحد،

(1) وعيب "التعقيد اللفظي" أشد نكارةً وبعداً عن فصيح الكلام من عيب "ضعيف التَّأليف" ولا يُغني عن ذكره وبيانه ذكرُ عيب "ضعيف التأليف" لأنّ ضعْف التأليف قلّما يؤدي إلى ما يُسيءُ في الدلالة؛ بل هو مُجرَّد خروج عن المشهور من فصيحِ كلامِ العرب. أمّا التعقيد اللفظيُّ ففي الغالب يؤدّي إلى الغموض أو التشويش، أو الدلالة على معانٍ غير مرادةٍ. وهو غيرُ مقبول لأنّه يُفضي إلى اختلال المغنى المراد واضطرابه. قالوا: والفرزدق أكثر من استعمل التعقيد اللفظيّ في شعره، وكأنّه كان يَقْصِدُ إلى ذلك.

كالفصل بين الكلمات التي يجب أن تتجاور ويتَّصل بعضها ببعض، فيضطرب التعبير، ويصعب الوصول إلى المعنى المراد، وذلك ضد الفصاحة التي هي ظهور وإبانة.

والتعقيد اللّفظي نوعان:

أ- شديد:

ومن أمثلته: قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال الملك هشام بن عبد الملك بن مروان:

ومَـــا مِثْلُــــهُ فِــي النَّـــاسِ إلاَّ مُمَلَّكــاً   أَبُـــو أُمِّـــهِ حَـــيٌّ أَبُـــوهُ يُقَارِبُـــهُ

كل الذي أراد الشاعر أن يقوله هو: ليس مثل هذا الممدوح في الناس حيٌّ يشبهه في الفضائل إلا ملكاً هو ابن أخت هذا الممدوح.

وأصلُ ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلاَّ مملَّكاً أَبُو أُمَّهِ أَبُوه. أي: إلاّ هشاماً بن أخته. فهذا البيت غير فصيح لضعف تأليفه الناشئ عن تعقيد ألفاظه وصعوبة استخلاص معناه؛ ومصدر خفاء دلالة البيت عدم ترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعاني في الذهن؛ حيث قَدَّمَ الشاعر وأَخَّرَ في الكلمات، فالْغَزَ إلْغَازاَ سَيِّئاً[1].

---

(1) فالشاعر هنا فصل بين المبتدأ منه وهو "مثلُه" وبين خبره البدل وهو " حي" وفصل بين الموصوف وهو "حي" وبين الصفة وهي "يقاربه" بأجنبي هو كلمة "أبوه" وهذا لا يجوز. ثم فصل بين المبتدأ الثاني وهو "أبو أمه"، وبين خبره وهو "أبوه" بكلمة "حيّ" لأنّ التقدير: "أبو أمه" أي أبو أم الخليفة أبو الممدوح. ثم قدّم المستثنى وهو "مملكاً" على المستثنى منه وهو "حي يقاربه" فقل لي بالله": كيف يمكن أن تصل إلى معنى هذا البيت؟

ب- خفيف:

ومثاله قول الفَرَزْدَق أيضاً يمْدحُ الوليد بن عبد الملك:

إِلَـــى مَلِـــكٍ مَـــا أُمُّـــهُ مِـــنْ مُحَـــارِبٍ أَبُـــوهُ وَلاَ كَانَـــتْ كُلَيْـــبٌ تُصَـــاهِرُهْ

وأصلُ هذا التركيب: إلى مَلِكٍ أَبُوه مَا أُمُّه مِنْ مُحَارِبٍ. فقدَّم وأخَّر. فأبْهَم المعنى وأفسده.

5- <u>سلامته من التعقيد المعنوي:</u>

وهو خفاء دلالة الكلام على المعنى المراد بسبب استعمال الكلمات في غير معانيها الحقيقية[1]، فيلتبس الأمر على السامع، ويصعب الوصول إلى المعنى المراد؛ خاصة عند عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود.

ومثال ذلك أن يقول لك أحدهم: نشر الحاكمُ ألسنتهُ في المدينة" فالكلام هنا غير فصيح لأن كلمة اللسان تُطلق أحياناً ويُراد بها اللغة[2]، فإذا استعمل إنسانٌ هذه الكلمة في الجاسوس كان الكلام غير فصيح، لأنّه استعمل الكلمة في غير معناها الحقيقي،

(1) أو بسبب سوء اختيار الكلمات التي يستعملها المتكلم عند إرادة التعبير عن المعاني، كاستعمال مجاز بعيد أو خفي العلاقة، أو استخدام كنايات بعيدة من العسير إدراك المراد منها، بسبب إيراد اللوازم الذهنية البعيدة المفتقرة إلى وسائط كثيرة مع عدم ظهور القرائن الدالة على المقصود – بأن يكون فهم المعنى الثاني من الأول بعيداً عن الفهم عُرفاً – فينجُم عنه خفاءُ دلالة الكلام، وصعوبة التوصُّل إلى معرفة المراد لتعثر انتقال الذهن من المعنى اللغوي للكلمة إلى المعنى الكنائي المقصود.

(2) قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: 4]، أي ناطقاً بلغة قومه، وهذا استعمال صحيح فصيح.

ومن ثَمَّ عقَّد المعنى أو وقع في التعقيد المعنوي الذي أخلَّ بفصاحة الكلام، والصواب أن يقول: بَثَّ الحاكم عيونه في المدينة".

ومن الأمثلة التي ذكروها على التعقيد المعنوي قول العبّاس بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدا

أي: سأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّار عنكم وأتحمّلُ آلام الفراق وأصبرُ عليه؛ لأنّ عاقبة الألم والصبر الفرجُ، وحين يأتي الفرجُ يكون قُرْبٌ دائم مصحوبٌ بسرور لا ينقطع.

وقد أبعد الشاعر في جعله جمود العين كناية عمَّا يوجبُه التَّلاقي من دوام السرور؛ لكثرة اللوازم الذهنية البعيدة لهذه الكناية التي لا تُدْرَكُ إلاّ بإجْهادٍ ذهْنِيّ، فنشأ عن ذلك خفاء دلالة الكلام على المعنى المراد[1].

وبيان ذلك أن الشاعر عبّر في الشطر الثاني من البيت بكنايتين: حيثُ جعل سكب الدُموع كنايةً عن الْحُزن والكآبة الناشئين عن فراق الأحبَّة، وهي كناية واضحة

(1) ووجه الخفاء والبعد: أن أصل معنى جمود العين بخلها بالدموع وجفافها منها عند إرادة البكاء والانتقال منه إلى حصول السرور بعيد، لأنه يحتاج إلى وسائط، بأن ينتقل من جمود العين إلى انتفاء الدمع منها حال إرادة البكاء، ومنه إلى انتفاء الدمع مطلقاً، ومنه إلى انتفاء الحزن ونحوه (فإن ذلك هو السبب غالباً في الدمع)، ومن انتفاء الحزن ونحوه إلى السرور، ولا يخفى أن الشاعر قد طوى وحذف جميع هذه الوسائط، فأورث بطء الانتقال من المعنى الأصلي الحقيقي إلى المعنى المراد، وخالف حينئذ أسلوب البلغاء ومن هنا رأوا أن في كلامه تعقيداً معنوياً. وينبغي أن تعلم أن المناط في الصعوبة عدم الجريان على ما يتعاطاه أهل الذوق السليم لا كثرة الوسائط الحسية، فإنها قد تكثر من غير صعوبة كما في وقولهم: "فلان كثير الرماد" كناية عن المضياف، فإن الوسائط كثيرة فيه ولكن لا تعقيد.

وصحيحة، لأنّ العادة كذلك، فأحسن الشاعرُ هنا وأصاب في ذلك. ثم جعل جمود العين كناية عمَّا يوجبُه التَّلاقي من دوام السرور بقُرب أحبّته، وهذه الكناية غامضة وبعيدة[1]؛ لأنّ العرب لا تعبّر بجمود العين عن السرور؛ إذ لم يُعرف في كلام العرب عند الدُّعاء لشخص بالسرور أن يقال له: جُمدت عينُك، أو لا زالت عينُك جامدة، بل المعروفُ عندهم أنّ جمود العين إنما يُكنَّى به عن بخل العين بالبكاءِ حالة الحزن، وهذا ممّا يزيد في آلام النَّفس، وليس من العلامات الدّالات على سرورها حتى يُكنَّى به عنه، كما في قول أبي عطاء يرثي ابن هُبيرة:

أَلاَ إنَّ عَيْنَــاً لَــمْ تَجُــدْ يَــومَ وَاسِــطٍ   عليــكَ بِجَــارِي دَمعِهَــا لَجَمُــودُ[2].

وهكذا كل النكايات التي تستعملها العرب لأغراض ويُغيِّرها المتكلِّم، ويريد بها أغراضاً أخرى تعبر خروجاً عن سنن العرب في استعمالاتهم، ويعد ذلك تعقيداً في المعنى، حيث لا يكون المراد بها واضحاً.

ومن أمثلة التعقيد المعنوي أيضاً قول الشاعر أبي تَمَّام:

جَــذَبْتُ نَــدَاهُ غَــدْوَةَ السَّــبْتِ جَذْبَــةً   فَخَــرَّ صَــريعاً بَــينَ أَيْــدِي القَصَــائِدِ[3]

فإنه ما سكت حتى جعل كرم ممدوحه يخرُّ صريعاً، وهذا من أقبح الكلام. فالعيبُ ليس في الكلمة بل في المعنى الذي استُعملت له.

---

(1) هي خفيّة وبعيدة، لخفاء دلالة الكلام، لصعوبة انتقال الذهن من المعنى اللغوي لجمود العين – أي بخلها بالدموع عند إرادة البكاء– إلى المعنى الكنائي وهو السرور الناشئ عن اللقاء.

(2) لجمود: أي لخيله بالدموع.

(3) الندي: الْجُود. وخرَّ صريعاً: سقط على الأرض.

6- سلامته من كثرة التكرار غير المفيد[1]:

فكثرة التكرار بغير فائدة من شأنه أن يدخله الاستكراه. كإيراد أفعال يتبع بعضها بعضاً بدون عطف، أو إيراد صفات متعددة على نسق واحد، أو تعاقب الأدوات (كحروف الجر) ومجيء بعضها إثر بعض.

ومن أمثلة إيراد أفعال يتبع بعضها بعضاً بدون عطف، قول أبي الطيب المتنبي من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة:

أَقِـلْ أَنِـلْ أَقْطِـعِ أَحْمِـلْ عَـلِّ سَـلِّ أعِـدْ زِدْ هـشْ بِـشْ تَفَضَّـلْ أَدْنِ سُـرَّ صِـلِ[2]

ففي هذه البيت تنافر شديد في الكلمات نشأ عن مجيء أفعال الأمر متتابعة بدون عاطفٍ بينها، فتتابعها على تلك الشاكلة أخلّ بفصاحة البيت، لأنها جعلت للثقل فيها حظاً عظيماً. وجعل اللسان يتعثر عن النطق بها مجتمعة. وقد دفع الشاعر إلى هذا ولعُه بالإعراب والإبداع.

ومن أمثلة إيراد صفات متعددات على نسق واحد، قول المتنبي أيضاً في قصيدة يمدحُ فيها عبيد الله بن خراسان الطرابلسي:

---

(1) وإنما شُرطت الكثرة هنا؛ لأن التكرار بلا كثرة لا يخل بالفصاحة، وإلا لقبح التوكيد اللفظي.

(2) أقل: فعل م الإقالة. أنل: من الإنالة وهي العطاء. أقطع: من الإقطاع بمنح الأرض. أحمل: من قولهم: حملته على فرس. عل: من التعلية والرفع. سل: من التسلية والترويح عن النفس. أعد: من الإعادة، أي: في العطاء. زد: من الزيادة في العطاء الثاني. هش: من قولهم: هششت إلى كذا أهش. بش: من البشاشة وهي طلاقة الوجه. تفضل من الإفضال وهو عطا الفضل. أدن: من الإدناء وهو التقريب. سر: أي: افعل ما يسر. صل: من الصلة. وهي العطية. وعلة التنافر في هذا البيت تكرر أفعال فيه دون حرف عطف بينها فزاده ثقلاً.

دَانٍ بَعيــــدٍ مُحِـــبٌّ مُــــبْغِضٍ بَهِـــجٍ   أَغَـــرَّ حُلْـــوٍ مُمِـــرِّ لَـــيِّنٍ شَـــرِسِ[1]

فتوالى الصفات في هذا البيت وتتابعها على هذه الشاكلة أخَلَّ بفصاحة البيت، وأورد ثقلاً على اللِّسان، جعله يتعثر عند النطق بها مجتمعة. وهذا البيت وسابقه مما يؤخذ على المتنبِّي.

ومن أمثلة تعاقب الأدوات ومجيء بعضها إثر بعض؛ قول أبي الطيب المتنبِّي يصفُ فرساً:

وتُسْــعِدُنِي فِـــي غَمْـــرَةٍ بَعْـــدَ غَمْـــرَةٍ   سَـــبُوحٌ لَهَـــا مِنْهَـــا عَلَيْهَـــا شَـــوَاهِدُ[2]

وصف فرصه بسلاسة العدو وسهولته حتى كأنها تعوم في الماء. ومعنى البيت: تُسعدني بالفوز بالغنائم والنجاة في شدة بعد شدة فرسٌ سبوح أي حسنة العدو، لا تُتعب راكبها فأكنما تسبح على الماء. والشاهد في عجز البيت، حيث أخلّ تكرار الضمير بفصاحة شطر البيت؛ لأنّ مجيء: "لها منها عليها" في عجز البيت جعلته ثقيلاً مستكرهاً.

---

(1) شرس: الشَّرس في اللغة: الْعَسِرُ السيّئ الْخُلُق، ويراد بها هنا: "الصلب"؛ يريد: أنه عسرٌ غير ليّن بالنسبة إلى الأعداء في الحرب، وبعض هذه الصفات المذكورة في البيت يُعامل بها أولياءه، وأضدادها يعامل بها أعداءه، وعلَّة التنافر في هذا البيت: إيراد صفات متعددات على نَسَق واحد.

(2) في غَمْرَةٍ: أيْ: في شدة. سَبُوح: أيْ: فرسٌ شديد الجري. لها منها عليها شواهدُ: أي لها على كرمها شواهد من صفاتها. "ولها: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. و"منها": حال من شواهد و"عليها": جار ومجرور متعلقان بـ "شواهد". و"شواهد" مبتدأ مؤخر. على أنّ تعاقب الأدوات قد لا يكون ثقيلاً مستكرهاً، والحكمُ ذوق الفصحاء.

7- سلامته من تتابع الإضافات:

أي: كون الاسم مضافاً إضافة متداخلة غالباً. كقولك: "سَرْجُ فَرَسِ تَابعِ الأميرِ"، فهذه الإضافات المتداخلة من شأنها أن يدخلها الاستكراه.

ومن الأمثلة التي ذكرها قولُ ابن بابك يخاطب حمامةُ:

حَمَامَـةَ جَرْعَـى حَوْمَـةِ الْجَنْـدَلِ اسْـجَعِي فَأَنْـتِ بِمَـرْأَى مِـنْ سُـعَادَ ومَسْـمَعِ[1]

يخاطب الشّاعر حَمَامَةَ جَرْعَى حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، فَيطالبُها بأن تسجع لِتَسْمَعَها مَحْبُوبتهُ سُعاد لأنها في هذا الموضع الذي تراها فيه سُعاد وتسمع صوتها. والسَّجعُ هديل الحمام.

والشاهد في صدر البيت؛ حيث أضاف "حمامة" إلى "جَرْعَى" وأضاف "جَرْعَى" إلى "حَوْمة" و"حَوْمة" إلى "الْجَنْدَلِ" فتوالت الإضافات، ومن هنا كانت علّة الاستكراه، لأنّ مثل هذه الإضافات المتتابعة مخلّ بفصاحة الكلام. على أنّ توالي الإضافات قدْ لا يكون مستكرهاً[2]

وجملة القول: إن فصاحة الكلام تعني: فصاحة مفرداته، وسلامته من تنافر كلماته مجتمعة ومن ضعف التأليف، ومن تعقيد الألفاظ والمعاني، ونايه عن كثرة التكرار، وبعده عن تلاحق الإضافات.

---

(1) جَرْعَى: مُؤنَّثْ أَجْرَع، وهي الأرض ذات الحجارة السود، أو ذات رمل لا تُنْبتُ شيئاً. حَوْمَةِ: مُعظم الشيء: الجندل: الحجارة.

(2) مما يجدر التنبيه إليه: أن القسمان الأخيران لا يقبحان إلاّ إذا أوجبا ثقلاً على اللسان، وإلاّ فلا يخلان بالفصاحة، فقد تكررّت الإضافات ولطفت في قوله تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2)} [مريم: 2]، كما تكررَّت الأدوات وكانت حسنة مليحة في قول قطري بن الفجاءة:

ولقـــد أرانـــي للرِّمـــاح دريئـــة مـــن عـــن يمينـــي مـــرَّةً وأمـــامي

ج- فصاحةُ المتكلّمِ:

هي مَلَكَةٌ –أي: صفة راسخة في نفس المتكلِّم – يقتدر بها صاحبها على التعبير عن مقصوده بلفظ فصيح، وفصيح الْجُمَل والتّراكيب.

أي التعبير عن المراد بكلامٍ سليمٍ من الخلل في مادته بعدم تنافر كلماته، وخَالٍ من الخلل في تأليفه وذلك بعدم ضعف تأليفه، وبريءٍ من الخلل في دلالته على المعنى التركيبي وذلك بعدم التعقيد اللفظي والمعنوي.

ولن يبلغَ شاعرٌ أو ناثرٌ هذه المنزلة إلاَّ إذا كان مُلِمًّا باللغة العربية، عالماً بقواعد نحوها وصرفها، واسع الإطلاع على مفرداتها ومعانيها، كثير النظر في كتب الأدب، محيطاً بأساليب العرب في أشعارهم ونثرهم وأمثالهم وكناياتهم ومجازاتهم، وكان مع ذلك ممارساً لموهِبَته بالتطبيقات العمليّة، حتى يكتسب مهارة التعبير عن مقاعده، وما يجول في نفسه من معانٍ بكلامٍ فصيح.

المسألة الثانية: البلاغة:

البلاغة في اللغة: هي الوُصول والانتهاء. أي: وُصُول الشيء إلى غايته ونهايته أو إيصال الشيء إلى غايته ونهايته. قال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: 86]، فـ "بَلَغَ": بمعنى وصل. ويُقالُ: "بلغ فلان مراده". إذا وصل وانتهى إليه. ويُقالُ: "رجلٌ بليغٌ" أي حسنُ الكلام، يَبْلُغُ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في نفسه، مما يُريد التعبير عنه.

والبلاغة في الاصطلاح: وصفٌ يقعُ للكلام والمتكلِّم فقط. يُقالُ: كلامٌ بليغٌ. ومتكلِّم بَليغٌ[1].

أ- بلاغة الكلام:

بلاغة الكلام في الاصطلاح: هي مطابقته لمقتضى الحال التي يورد فيها، مع فصاحة ألفاظه سواء أكانت مفردة أم مركبة.

وهذا يعني أن شروط الكلام البليغ شرطان:

الأول: أن يكون فصيح المفردات والجُمَل.

والثاني: أن يكون مطابقاً لمقتضى حال من يُخاطبُ به.

وفي التعريف ثلاثة أشياء تستدعي التحديد، وهي: (الحال، ومقتضى الحال، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال).

---

(1) ولا توصف الكلمة بالبلاغة؛ لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه، فلم يُسمع عن العرب وصف الكلمة بها، إذ يُقالُ: كلمة فصيحة، ولا يقال: كلمة بليغة.

- فالحال "ويُسمَّى الْمَقَام: هو الأمرُ الحاملُ للمتكلِّم على أن يُورد كلامه على صورة مخصوصة[1].
- والْمُقْتَضَى "ويُسمَّى الاعتبارُ المناسبُ": هو الصورة المخصوصة التي تُوردُ عليها العبارة[2].
- ومطابقةُ الكلام للمقتضى: هي تطبيقُ المتكلم في كلامه ما تفرضه عليه حالُ مخاطبه من مقتضى، أي كيفية خاصة[3].

---

(1) وأنت تحس بأثر ذلك في كلامك العادي؛ إذ تُعدُّ كلامك دائماً على نحو يناسب فيه الإطار الذي يقال فيه ويأخذ كلامك صوراً مختلفة تبعاً لطبيعة من تتكلم معهم، فكلامك مع الوالدين غير كلامك مع الأشقاء. وكلامك مع معلميك غير كلامك مع زملائك. وهذه الأوضاع التي تُقدِّم فيها كلامك، وتؤثر في صياغتك إيَّاه وفي صبِّه في قوالب خاصَّة تُسمَّى: "أحوالاً" أو "مقامات" أو "سياقات".

(2) فمثلاً "الكلام المؤكد بأية طريقة من طرق التأكيد هو مقتضى حال الإنكار عند المتلقِّي؛ أي إنّ صورة التأكيد في الكلام هي أمرٌ تقتضيه حال الإنكار عند المخاطب. والكلام الموجز المختصر هو مقتضى حال الذكاء عند المتلقي؛ أي إن صورة الاختصار في الكلام هي أمر يستدعيه الذكاء عند المخاطب. والكلام المطنب المسهب هو مقتضى حال الغباء وصعوبة الفهم عند المتلقي.

وعلى الجملة فالكلام المؤكد، والكلام والموجز، والكلام المطنب، وغير ذلك مما لا حصر له من صور الكلام، هذه جميعها مقتضيات أملتها أحوال خاصة وعادات يعرفها المتكلمون عند من يوجّهون إليهم كلامهم، وما هيئات كلامنا كلها إلا استجابات لتصوّرنا لحال من نكلمهم.

(3) وعليك أن تعلم جيداً أن مقتضى الحال، أو الاعتبار المناسب –كما يسمى أحياناً– يختلف باختلاف الحال وفقاً للقانون البلاغي العام: "لكل مقام مقال"، الذي يساوي =

فمثلاً: كونُ المخاطب مُنكراً ليوم البعث حال يقتضي تأكيد الكلام للمخاطب، والتأكيد مقتضى واعتبار مناسب، وكونُك تُخاطبه بأسلوب التأكيد بقولك: "إنّ يوم الساعة لآتٍ لا شك فيه" مطابقة لمقتضى الحال.

والمدح حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب. وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز. فكلٌ من المدح والذكاء "حال ومقام" وكلٌ من الإطناب والإيجاز "مُقْتَضَى". وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز "مُطابقة للمقتضى".

ولما كانت أحوال المخاطبين مختلفة، وكانت كلٌ حالة منها تحتاج طريقة من الكلام تلائمها كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطريقة الأكثر ملاءمة لحالة الْمُخاطب به، لبلُوغ الكلام من نفسه مبلغ التأثير الأمثل المرجو[1].

=

القول: "لكل حال مقتضى" ويصح العكس وهو أن تقول: "لكل كلمة مع صاحبتها مقام" الذي يساوي القول: "لكل مقام حال يقال فيها".

فحال الإنكار عند المخاطب مقتضاها الكلام المؤكد، وحال الذكاء عند المخاطب مقتضاها الكلام الموجز، وحال البلادة والغباوة مقتضاها الكلام المطنب الموضح، وحال الاعتذار من المخاطب مقتضاها الكلام الْمُسهب المليء بالمسوغات والأعذار التي تسُل الضغينة، وتحمل على الاعتبار والصفح... وهكذا...

(1) الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه، تكادُ لا تُحصرُ: فمنها ما يستدعي من الكلام إيجازاً. ومنها ما يستدعي من الكلام بسطاً. ومناما يستدعي خطاباً بصورة مباشرة. ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة غير مباشرة. وحال الوعظ يستدعي خطاباً غير حال البيان العلمي. وحال الدعاء والتماس مطلوب يستدعي

=

وهذا يعني أن الكلام لا يطابق الحال إلاّ إذا كان وفق عقول المخاطبين: واعتبار كبقاتهم في البلاغة، وقوتهم في البيان والمنطق. كما أن ارتفاع شأن الكلام في الْحُسْن والقبول يكون بمطابقته لمقتضى الحال –أي: للاعتبار المناسب– وانحطاطه يكون بعدم مطابقته له.

ويُلْحقُ بمطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب وجوهٌ ومحسِّنات أُخَرُ كثيرةٌ تُزَيِّنُ الكلام وتورثُه حُسْناً وتَزِيده جمالاً.

وكُلَّما كان الكلام مع فصاحة مفرداته وحمله أكثر مطابقة لحال المخاطب وتأثيراً في نفسه كان أعلى حسناً، وارفع منزلة في مراتب البلاغة ودرجاتها. وتتناول الدرجات وتنحط بمقدار بعد الكلام عن مطابقة مقتضى حال المخاطب وضعف تأثيره في نفسه.

وعليه فإن الكلام البليغ: هو الذي يصوره المتكلم بصورة تناسب الموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون فإن لكل مقام مقالاً.

=

خطاباً غير حال التكليف من ذي سلطان. وخطاب أهل العلم والمعرفة يخالف خطاب الذين لا علم لديهم. وخطاب الملوك والأمراء والرؤساء يخالف خطاب العامة. والصغار وأحداث الأسنان لهم ألوان من الخطاب تلاءم حداثتهم، وصغر أعمارهم. إلى غير ذلك من أصناف المخاطبين، وأحوالهم النفسية والاجتماعية، وأحوال المتكلم وظروف الكلام. واختيار الأسلوب من الكلام الملائم للمخاطب، أو الأكثر ملائمة له يحتاج فطنة وذكاء، وخبرات كثيرات بخطاب الناس. من أجل ذلك كانت مراتب البلاغة متفاوتة بقدر تفاوت الاعتبارات والمقتضيات، وبقدر رعايتها يرتفع شأن الكلام في الحسن والقبح.

فبلاغة الكلام إذاً ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، وإنما هي لفظ ومعنى وتأليف للألفاظ يمنحها قوة وتأثيراً وحسناً. ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه وموضوعاته وحال السامعين والنّزعة النفسية التي تُسيطر على نفوسهم، فَرُبّ كلمة حسنت في موطن ثم كانت نابية مُستكرهة في غيره، ورُبّ كلام كان في نفسه حسناً خلاباً حتى إذا جاء في غير مكانه، وسقط في غير مسقطه خرج عن حدِّ البلاغة، وكان غرضاً لسهام الناقدين.

ب- بلاغـة المتكلِّم:

بلاغــة المـتكلم فــي الاصـطلاح: هــي مَلَكَــةٌ: أي صــفة ثابتــة مسـتقرة فــي ذات المـتكلم- يقتـدرُ بهـا علـى تـأليف كـلام بليـغ. وذلـك بـأن يُعبِّـر عـن المعـاني التـي يريـد إفادتهـا لغيـره بألفـاظ فصيحــة فــي مفرداتهـا وتراكيبهـا، ومطابقـة لمقتضـى حال من يُخَاطَبُ بها.

أي: يمكنه بواسطة هذه الملكة التصرف في فنون الكلام، وأغراضه المختلفة، وتأدية المعنى واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاَّب مؤثِّر، مع ملائمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون، فيحسن من اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء وحسن انتهاء، ليبلُغ من مخاطبة غاية ما يريد.

ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يُعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا العكس بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ الملائمة للغرض المطلوب، وفي موضع الجد ألفاظه، وفي موضع الهزل ألفاظه.

ومثال ما استعمل من هذه الألفاظ في غير موضعه قول أبي تمام في ممدوحه:

مَـــا زَالَ يَهْـــذِي بالـــمَكَارِمِ دَائبـــاً   حَتَّـــى ظَنَنَّـــا أَنَّـــه مَحْمُـــومُ

لأن كلمة "يهذي" وكلمة "محموم" ليست من الألفاظ التي تُستعمَل في المدح، ولكنها من الألفاظ التي قد تستعمل في الذم.

ومن مستقبحات الابتداء: مطلع القصيدة التي مدح بها الشاعر جريرُ الخليفة عبد الملك بن مروان، والتي ابتدأها بقوله:

أَتَصْـــحُو أَمْ فُـــؤادُكَ غَيْـــرُ صَـــاحِ   عَشِـــيَّةَ هَـــمَّ صَـــحْبُكَ بـــالرَّواحِ

فاستنكر عبدُ الملك هذا الابتداء وقال له: بل فؤادك أنت:

ونعى علماء الأدب على أبي عُبادة البُحتري أن يبدأ قصيدة ينشدها أمام ممدوحة أبي سعيد الثغري بقوله:

لَـــكَ الوَيْـــلُ مِـــنْ لَيْـــلٍ تَطَـــاوَلَ آخـــرُهْ   وَوَشْـــكِ نَـــوَى حَـــيّ تُـــزَمُّ أَبَـــا عِـــرُهْ

وقد ردّ عليه الممدوح أبو سعيد غاضباً بقوله: بل الويل والخزيُ لك لا أمَّ لك(1).

ومن أمثلة إهمال المقام المناسب: ما روي من أن أبا النجم الشاعر دخل على هشام بن عبد الملك في مجلسه فأنشده من نظمه:

صَـــفْرَاءُ قَـــدْ كَـــادَتْ ولَمَّـــا تَفعـــلِ   كَأَنَّهَـــا فِـــي الأُفـــقِ عَـــيْنُ الأَحْـــوَلِ

وكان هشام أحولاً، فغضب وأخرجه وأمر بحبسه.

---

(1) فينبغي للمادح أن يفتتح شعره بما يكون دالاً على غرضه، وألاّ يشوبه بما يتطير منه، ويستجفي في كلامه: ب كنفي الشباب، وتفرق الأحباب، وذم الزمان، وتقطع الأقران.

هذا ولما كان كلُّ كلام بليغ لا بد أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال، مع سلامته من العيوب المخلَّة بفصاحته وفصاحة أجزائه، كان كل كلامٍ بليغٍ كلاماً فصيحاً، وكان كُلُّ متكلم بليغ متكلماً فصيحاً.

لكن قد يكون الكلام فصيحاً ولا يكون بليغاً؛ لأن الفصاحة أعمُّ، والبلاغة أخصُّ دائماً، فَكُلُّ بليغٍ فصيحٍ، كلاماً أو متكلماً، وليس كلُّ فصيحٍ بليغاً، فالكلامُ الفصيح لا يكون كلاماً بليغاً حتى يكون مطابقاً لمقتضى حال المخاطب به[1].

---

(1) في مسألة الفرق بين الفصاحة والبلاغة: رأيان للعلماء:

فبعضهم يرى: أن الفصاحة والبلاغة كلمتان مترادفتان فالفصاحة هي البلاغة، والبلاغة هي الفصاحة، ولا فرق بينهما. ومن هؤلاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وأبو هلال العسكري، وغيرهما.

وبعضهم يرى: أن الفصاحة مرتبطة بالألفاظ، بينما البلاغة مرتبطة بالألفاظ والمعاني. ومن هؤلاء السكاكي وغيره. أي أن بين الفصاحة والبلاغة عموم وخصوص، فالبلاغة أخص، والفصاحة أعم.

ولدينا دليل وقاعدة يؤيدان الرأي الثاني ويعضدان رجحانه على الرأي الأول، وهذا الدليل وإن لم يكن صريحاً إلا أنه مؤشر على صحة ما ذكر. فالدليل أو المؤشر على أن الفصاحة تختص باللفظ، والبلاغة تختص باللفظ والمعنى: قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} [القصص: 34]. وأما بالنسبة إلى البلاغة فالدليل فيها غير واضح تمام الوضوح، لكن فيه ما يدل على ذلك وهو قول الله عز وجل للنبي –ﷺ– في حق المنافقين {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63)} [النساء: 63]. وأما القاعدة: فهناك قاعدة أصولية معتبرة، وتعتبر قاعدة لغوية أيضاً وهي: [إن اللفظ إذا دار بين التأسيس والتأكيد فحمله على التأسيس أولى إلا بدليل يدل على التوكيد]. واعتماد هذه القاعدة إثراء للغة العربية، ولذلك فإن قول: إن الفصاحة هي البلاغة والبلاغة هي الفصاحة، تكرار دون أن يكون هناك فائدة أو زيادة في المعنى، لكن إذا فرقنا أسسنا وأنشأنا معنى جديداً آخر، كما هو حال الرأي الثاني.

المسألة الثالثة: الأسْلوبُ:

تقدّم بيان أن البلاغة في الاصطلاح هي: مطابقة الكلام لما يقتضيه حال الخطاب، مع فصاحة الكلمة والكلام. ولا يمكن أن يكون المتكلم بليغاً حتى يتحدث عما يناسب الحال أو المقام، أي أن يكون أسلوبه مناسباً، فإذا تحدث في مقام درس علمي يكون أسلوبه ليس كأسلوب من يتحدث في مقام أدبي، وليس كمن يتحدث في مقام خطابي، بل لابد أن يطابق كلامه ما يقتضيه الحال أو المقام، وإلا لما كان كلامه مقبولاً، ولما كان مرضياً ولما كان بليغاً، لأن لكل مقام ما يناسبه من الأسلوب.

والعلاقة بين الأسلوب والبلاغة وثيقة جداً، وإذا ما أردنا أن نحدد عناصر أسلوب معين فالمعين الأول في ذلك هو البلاغة التي يكون فيها الكلام مطابقاً لمقتضى الحال. وهذا يستدعي أن نذكر مفهوم الأسلوب، وعناصره، وأنواع الأساليب.

مفهوم الأسلوب:

الأسلوب في اصطلاح البلاغيين: هو طريقة التعبير عن الأفكار والقضايا والمشاعر باختيار الألفاظ المناسبة، لقصد الإيضاح وإيصال المعلوم، أو التأثير في المتلقي.

أو هو المعنى المصُوغُ في ألفاظ مؤلفة تُناسب حال الخطاب ومقامه، وعلى صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام، وأفعل في نفوس سامعية. وهو مرتبط بطريقة التفكير وبالموضوع الذي تتم معالجته[1].

(1) وتطلق كلمة الأسلوب في اللغة على: الصف من التخيل ونحوه، وعلى الطريق الممتد، وعلى الاتجاه والمذهب الذي يسير عليه الإنسان، فلكل واحد أسلوبه الخاص، وتطلق على الفن في الكلام، فأفانين الكلام أساليبه وطرقه، ونحو ذلك (انظر: المعجم الوسيط، مادة "س ل ب").

وهـذا التعريـف يشـمل الأسـلوب بنوعيـه، العلمـي، والأدبـي، فـالعلمي يهـدف إلـى إيصـال المعلومـات المجـردة إلـى المتلقـي، بينمـا الأسـلوب الأدبـي يهـدف إلـى التأثير في المتلقي.

عناصر الأسلوب الأساسية: لأي أسلوب عنصران أساسيان هما:

1- **الأفكار والمعاني:** وهي بمثابة الروح للجسد، فلا يسمى الكلام كلاماً إلا إذا كان له معنى، وفيه فكرة ومعرفة.
2- **الصياغة اللفظية:** وهي مجموعة الكلمات والجمل والعبارات التي تنقل إلينا المعاني والأفكار والمعارف.

وبجانب هذين العنصرين هناك عنصران يختصان بالأسلوب الأدبي، هما:

أ- الصور البيانية: وتندرج تحت عنصر الشكل؛ لأنها تتكون من كلمات وجمل ممثلة في التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز والكناية، والمحسنات البديعة والزخرفة اللفظية.

ب- العاطفة أو المتعة الفنية: وتندرج تحت عنصر المضمون، وهي ما نعرفه أيضاً باسم: الشعور، الوجدان، الانفعال.

أنواع الأساليب:

يتنوع الأسلوب التعبيري إلى ثلاثة أنواع رئيسة هي: (أسلوب علميّ، وأسلوب أدبي، وأسلوب خطابي)[1].

(1) وبعضهم يدرج الأسلوب الخطابي ضمن الأسلوب الأدبي، ويجعل الأساليب اثنين فقط: علمي، وأدبي.

ولا شك في أن هناك تبايناً بين هذه الأساليب التعبيرية فلكُلٍّ منها قواعده وخصائصه وسماته التي تميزه عن غيره، ولكل منها ميادينه وأهميته وأغراضه، ولكل وظائف يؤديها في عالم المعرفة الإنسانية، وهذا التباين تفرضه طبيعة كل من العلم والأدب والخطابة واختلاف ميدان كل منها.

وسأتحدث عن كل أسلوب من هذه الأساليب محاولاً توضيح خصائص كل منها مع مثال يَزيدُ الفارقَ فيما بينهما وضُوحاً

1- **النوع الأول: الأسلوبُ العلميُّ:**

هو الأسلوب الذي يهدف إلى إظهار حقائق العلوم والفنون، أيّا كانت هذه العلوم، سواء كانت تاريخاً أو فلسفة أو طبّاً أو رياضة أو هندسة أو كيمياء أو طبيعة أو فقهاً أو تفسيراً أو حديثاً أو نحواً أو صرفاً أو غيرها، فموضوع الأسلوب العلمي هو حقائق العلوم.

والكاتب في الأسلوب العلمي منهجه خبري، أي مخبر عن واقع يقيني أو محتمل والخبر قيمته في صدقه، وجمالهُ في صحَّة العبارة عنه.

والكاتب فيه مطالب بأن يلتزم بحقائق العلم الذي يتحدث عنه في أمانة ووضوح وجلاء[1].

---

(1) ويقسم بعضهم الأسلوب العلمي إلى قسمين: أسلوب علمي بحت، وأسلوب علمي متأدب.
فالأسلوب العلمي البحت: وهو الذي يعنى بعرض الحقائق العلمية دون انصراف إلى جمال اللفظ، أو أناقة التعبير.
والأسلوب العلمي المتأدب: هو الذي يهدف إلى عرض الحقائق العلمية بطريقة لا تخلو من أناقة في اختيار ألفاظها وعباراتها، وإن كانت لا تصل في ذلك إلى مستوى الأسلوب الأدبي. وهو أسلوب يكسب النصوص العلمية قيمة أدبية من طريقة عرضها. ومن هذا الأسلوب: كتب التاريخ التي =

وأهم خصائص أو مميزات الأسلوب العلمي ما يلي:

1- أن تكون ألفاظه وجمله وتراكيبه واضحة لا غموض فيها، تؤدي الفكرة بشكل مباشر.

2- أن يخاطب العقل والفكر بقصد الإفهام والإقناع بالحقائق العلمية.

3- أن تكون معتمدة على حقيقة اللغة، بعيدة عن المجازات أو الصور الخيالية.

4- يتسم بالهدوء بعيداً عن الإثارة والانفعال، فلا مكان فيه للعواطف.

5- يكثر في الأسلوب العلمي التقسيم والتبويب، والتنظيم والمصطلحات العلمية المتصلة بالموضوع المتناول.

6- أن الغاية عنده هي الإقناع بالحقائق التي يتحدث عنها، ولذا يكثر من الدلائل والبراهين وسوق الحجج العقلية والمنطقية والقياس والتمثيل العلمي والاستقراء. والأرقام والإحصائيات أحياناً، التي تضع أمام العقل الحقيقة العلمية سالمة من الشك.

2- <u>النـوع الثاني: الأسلوب الأدبي:</u>

الأسلوب الأدبي هو أسلوب تعبيري فني، يستعمله الكُتَّاب والأدباء والشعراء وتكتب به الأجناس الأدبية المختلفة، من مقالة وخطبة ورسالة وقصيدة وقصة ومسرحية.

=

تستخدم أسلوب القصة للتشويق، وكتب الرحلات التي يقصد مؤلفوها إلى إمتاع القارئ بطريقتهم في سرد الأحداث ووصف المناظر.

وهذا الأسلوب يمتزج فيه الفكر بالعاطفة، ويستخدم فيه الكاتب الألفاظ والعبارات في دلالاتها الحقيقية والمجازية، ويكثر فيه الجمال، بل إن الجمال أبرز صفاته وأظهر مميزاته للاهتمام فيه بالصياغة اللفظية، وتأليف العبارة وتنسيقها، بحيث يخرج الكلام ممتعاً مشرقاً له تأثير في السمع، ووقع في النفس، ولكثرة ما فيه من تصوير دقيق وخيال رائع، وتلمُّس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنوي ثوب المحسوس، وإظهار المحسوس في صورة المعنوي. ويزداد جمال الأسلوب بقدر ما يكون فيه من تصوير وتخييل رائع.

ويهدف هذا الأسلوب إلى إثارة عاطفة المتلقين، والتأثير في نفوسهم، لتثبيت المعنى المقصود، وتحقيق الإفادة والإقناع والإمتاع في آن معاً.

وأهم مميزات الأسلوب الأدبي ما يلي:

1- تكون فيه الألفاظ فصيحة مناسبة للموضوع، بعيدة عن الابتذال، توضح المعنى بالبيان البليغ المؤثر في النفس، وتدل على الذوق العالي والتمكن اللغوي وسعة الثقافة.

2- خلّوه من المصطلحات العلمية والإحصائيات والأرقام غالباً، لأنه يتحدث عن موضوعات ليست ذات طابع علمي.

3- لا يتقيد الكاتب بهذا الأسلوب بحجم الفكرة أو الشعور الذي يعبر عنه، لذا فقد يوجز وقد يسهب، وفي جميع الحالات يهتم بجمال الألفاظ والعبارات.

4- تمتزج في الأسلوب الفكرة بالعاطفة، وتظهر فيه عواطف الشاعر وانفعالاته في أثناء القضايا التي يعرضها، مما يكسب الكلام حيوية ولهجة حميمة منعشة.

5- تميل اللغة في هذا الأسلوب إلى الخيال الأدبي والصور البيانية من تشبيه وتمثيل واستعارة وكناية، ومحسنات بديعية وزخرفة لفظية كالطباق والجناس والمقابلة ونحوها، التي تنقل المتلقي إلى أجواء يسرح فيها الخيال، وتتجسد فيها المجردات، في إطار دافئ، يثير العواطف، ويثري الوجدان، ويبعث في النفوس النشاط والحركة.

6- وإلى جانب الخيال والعاطفة نجد فيه الاهتمام بموسيقى الألفاظ والعبارات، أي يجرس الألفاظ والعبارات والمؤثرات الصوتية المختلفة، لتصور الإحساس وتهز المشاعر. ويتجلى ذلك في جرس الكلمات والوزن والقوافي الشعرية، أو السجع والموازنة والتكرار والإيقاع الداخلي في النثر، المنسجم والمناسب لمضمون النص. وهذا يعطي كل نص نغماً موسيقياً خاصاً يميزه عن غيره.

7- إن الغاية عنده هي إثارة عاطفة السامع أو القارئ، والتأثير في نفسه، وذلك يجعل النص جميلاً، مشوقاً، حسن الوقع على الأذن والنفس، بقصد الإمتاع إلى جانب نقل الأفكار والإيضاح والإفهام والتأكيد والإقناع؛ لتثبيت المعنى المقصود في النفس.

والجدير بالذكر: أن أي تكلف أو مبالغة في استخدام الخيال والمحسنات البديعية والإيقاع يؤدي إلى نتائج عكسية تماماً، فيصبح النص ثقيلاً على النفس، غثاً لا جمال فيه.

نموذج لكل من الأسلوب العلمي والأدبي:

مثال الأسلوب العلمي: ما قيل في وصف الشمس: (الشمس كوكب مضيء بذاته، وهي أعظم الكواكب المرئية لنا منظراً، واسطعها ضوءان وأغزرها حرارة، وأجزلها نفعاً للأرض التي نسكنها، والشمس كرة متأججة ناراً، حرارتها شديدة، ويبلغ ثقلها ثلاثمائة وزن من ثقل الأرض، وهي أكبر منها جرماً بثلاثمائة ألف ألف مرة، وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحد في نحو خمسة وعشرين يوماً، وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل، وهي مع كل هذا العظم الهائل لا تعد من النجوم الكبرى، بل إن أكثر ما نشاهده من النجوم الثابتة شموس أكبر من الشمس بألوف المرات، والشمس بسياراتها تابع من توابع أحدها).

فالكاتب هنا حريص على إظهار الحقائق القيمة الدقيقة¬، والإكثار من الأرقام الحسابية التي تساعده على تقرير المعلومة بشكل دقيق.

ومن المعلوم أن الحقائق العلمية واحدة لا تختلف عند أمة عنها عند أمة أخرى؛ ولذا فالأسلوب العلمي يتفاوت من كاتب لآخر ليس في الحقائق المعروضة، وإنما يتفاوت من حيث الوضوح والغموض، وسوق البراهين.

مثال الأسلوب الأدبي: ما قيل في وصف الشمس: (سل الشمس من رفعها ناراً ونصبها مناراً، وضربها ديناراً، ومن علقها في الجو ساعة، يدبٌ عقربها إلى قيام الساعة، ومن الذي أتاها معراجها، وهداها أدراجها، وأجلها أبراجها، ونقل في سماء الدنيا لمسراجها؟ الزمان هي سبب حصوله، ومنشعب فروعه وأصوله، وكتابه بأجائه وفصوله وُلِدَ على ظهرها، ولعب على حجرها، وشاب في طاعتها وبرِّها، ولولاها ما

اتسقت أيامه ولا انتظمت شهوره وأعوامه، ولا اختلف نوره وظلامه، ذهب الأصيل من مناجمها، والشفق يسيل من محاجمها، وتحطمت القرون على قرنها ولمن يعل تطاول السنين بسنها ولم يمحُ التقادم لمحة حسنها).

فهذا النص –كما ترى– يتفق مع النص الأول في الموضوع، وهو "وصف الشمس". ولكن الاختلاف بينهما ظاهر.

فالأول: وقف عند الحقائق والعبارات، وصاغ منها الأسلوب العقلي الخالص.

والثاني: تجافى عن الحقائق التفصيلية الدقيقة كالأعداد والمقاييس ووقف عند رءوس الأفكار.

وأهمها: تصوره لها على أنها أشياء جميلة لإعجابه بها وصورها بخياله فكانت جميلة مؤثرة، فالشمس دينار مضروب، وساعة معلقة، عقرباها الليل والنهار، وهي كتاب الزمن ومهده وأمه، وهذا الأصيل ذهب من مناجم الشمس والشفق سائل من محاجمها، إلى غير ذلك من الصور والأخيلة التي جاءت في هذا الأسلوب.

3- النوع الثالث: الأسلوبُ الخطابيّ:

الأسلوب الخطابيّ –ويدرجه البعض ضمن الأسلوب الأدبيّ– نسبة إلى الخطابة أو الْخُطبة بضم الخاء[1].

(1) والخطابة في اللُّغة: مصدر خَطَبَ، يَخْطُبُ. ويتعدى الفعل بنفسه وبحرف الجر، فيقال كما جاء في "المعجم الوسيط": خَطَبَ الناس، وخطب فيهم، وخطب عليهم، خطَابَة وخُطْبَة: ألقى عليهم خُطْبَة. أما الخطبة – بكسر الخاء– فهي طلب المرأة للزواج، وفي الحديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه–: "نهى رسول الله –ﷺ– أن يخطب الرجل على خطبة أخيه". أخرجه البخاري ومسلم.

والخطابةُ فنَّ أدبيّ، يُراد به إحداث تأثير فعَّال على المتلقين واستماله عواطفهم؛ لإقناعهم بالفكرة التي يدعو إليها الخطيب، والعمل على حسب ما يدعو إليه.

وتتنوَّع الْخُطب باختلاف موضوعها وغرضها. وأشهر أنواعها هي: الخطب الدينية والسياسية، والاجتماعية والقضائية(1).

وقد يقف الإنسان خطيباً في مواقف اجتماعية معينة؛ كالتكريم، والاستقبال، والتوديع والشكر، ونحوها. هذا؛ بجانب ما تقدمه الخطابة من ثقافة وأدب للمتلقي.

والتكرار من أهم مبادئ فن الحطابة؛ لأن تَفهُّم الأفكار الجديدة يحتاج إلى وقت طويل بحيث يبقى الذهن مسلطاً عليها، وليس شرطاً أن يكون التكرار بالألفاظ ذاتها، إذ النفوس تنفر من ذلك، خاصة في الجمل الطويلة، بل يكون بألفاظ وعبارات جديدة، وطرق مختلفة.

ولا بد من الخطيب أن يتفاعل مع الخطبة تفاعلاً حقيقياً صادقاً، لا متكلّفاً، ولا يكون كلامه خارجاً من اللسان دون القلب، فالكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان.

ولذلك قالوا: يحسن أن يكون فيه حماس، يستثير عزائم السامعين ويستنهض هممهم، وأن يُكثر من استعمال المترادفات، واختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين وأن

(1) وقد تبَّوأت الخطابة مكانة سامية في الإسلام، فشرعت خُطبة الجمعة والعيدين، وأصبحت أبرز وسائل تبليغ دين الله وشرعه إلى الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الناس على ما يحتاجون إليه في أمر دينهم ودنياهم، وإثارة حمية الجند، ودفعهم إلى ساحات الجهاد، وزيادة قواهم المعنوية.

يُنْوِّع ضروب التعبير، من إخبار تارة إلى تقرير تارة أخرى، إلى استفهام وتعجب، واستنكار، وترغيب وترهيب، وضرب للأمثال، وتلمُّس للحكم والأسرار.

ويرفع الصوت في موضع الرفع، والوقوف في موضع يحسن الوقوف فيه حتى يظهر المعنى؛ وأن تكون مواطن الوقف كافية شافية للنفس، ثم واضحة قَويّة. فإن مدار أمر الخطابة على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهيم واختيار الألفاظ النبيلة للمعاني الجليلة.

وأهداف الخطبة كثيرة ومتنوعة، منها: إيضاح أمر غامض، أو تصحيح مفهوم خاطئ، أو حث على فعل معروف، أو ترك منكر، أو إقناع بفكرة معينة.

ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير في تأثيره ووصوله إلى قراره النفوس. ومما يزيد في تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب في نفوس سامعيه، وقوة عارضته وسطوع حجتَّه، ونبرات صوته، وحسن إلقائه، ومحكم إشارته.

هذا وقد بلغ النبي -ﷺ- في هذا الأسلوب المرتبة العليا، فقد جاء في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: ((كَانَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلاَ صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ)).

وأهم خصائص الأسلوب الخطابي ما يلي:

1- يمتاز هذا الأسلوب بأهميته العظيمة، وتنبع هذه الأهمية من دور الخطابة الوظيفي في المجتمع، فقد اعتمد عليها الإنسان في شتى المجالات.

2- يمتاز باختبار الألفاظ الفصيحة السهلة النطق، التي لا يتعثر اللسان في إبرازها والمناسبة للموضوع، الموضحة للمعنى بالبيان البليغ المؤثر في النفس.

3- يمتاز بالحماس الذي يستثير عزائم السامعين، ويستنهض هممهم، وبالتشويق الذي يثير العواطف، ويسحر القلوب، ويأخذ بالألباب.

4- يمتاز بتنوّع ضروب التعبير، وبالتكرارُ، واستعمال المترادفات، واختيارُ الكلمات الجزلة ذات الرنين، لا يلتزم فيه الخطيب طريقاً واحداً أو وتيرة واحدة في طريقة إلقائه.

5- أن يجانب الوقوع في عيب الطول الممل، أو الوقوف في ضده وهو القصر المخل، وخير الأمور الوسط، فقد جاء في صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة -رضي الله عنه- قال: ((كُنْتُ أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- الصَّلَوَاتِ فَكَانَتْ صَلاَتُهُ قَصْداً وَخُطْبَتُهُ قَصْداً)).

فالمقصود من الخطبة هو إفهام المخاطبين وإقناعهم بمضمون الكلام الموجه إليهم، فكل ما يحول دون ذلك فهو عيب يجب اجتنابه.

نموذج للأسلوب الخطابي:

خطبة أبي بكر -رضي الله عنه- لما بويع بالخلافة كما تاريخ ابن كثير بإسناد صحيح، وكما روى ذلك ابن إسحاق بسند صحيح. فبعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله قال: «أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني؛ الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى

آخذ له حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1].

---

(1) وخطبة الصديق -ﷺ- هذه، هي البيان السياسي الأول الذي ألقاه للأمة الإسلامية عندما تولى قيادتها، وهي تعتبر من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها؛ لاحتوائها على مضامين عظيمة، ومبادئ راقية على مستوى أنظمة الحكم في ذلك العصر، وفي هذا الزمن، حيث أعلن الصديق فيها سياسة دولته العامة، وحدد فيها مسؤولية الحاكم تحديداً عملياً، وبين مدى العلاقة بينه وبين المحكومين، وغير ذلك من القواعد الدستورية المهمة في بناء الدولة وتربية الشعوب. ففي هذه الخطبة إقرار لعدد من الحقوق والمبادئ الدستورية العظيمة وهي: إقرار مبدأ الشورى: وهذا المبدأ يظهر في طريقة اختياره وبيعته وفي خطبته في المسجد الجامع، بمحضر من جمهور المسلمين. وإقرار حق الأمة في مراقبة الحاكم ومحاسبته. وإقرار مبدأ الصدق والشفافية: حيث أعلن أن الصدق بين الحاكم والمحكوم هو أساس التعامل؛ لترسيخ جسور الثقة بين الأمة وبين حاكمها. وإقرار مبدأ العدل والمساواة بين الناس وإعلان التمسك بالجهاد وإعداد الأمة لذلك، لكي يرفع الظلم عن المظلومين ويزيل الغشاوة عن أعين المقهورين ويعيد الحرية للمحرومين، وينطلق بدعوة الله في آفاق الأرض يزيل كل عاتق ضدها. وإعلان الحرب على الفواحش لحفظ قيم الأمة وأخلاقها، لتعيش أمة قوية منتجة تعطي الخير، وتقدم الفضل لكل الناس وإقرار أن مصدر التشريع هما: القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد عبر عن ذلك بقوله: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، وكل تلك الحقوق والحريات والمبادئ تستند إلى حجج شرعية قوية، وإلى نصوص شرعية قرآنية ونبوية لا حصر لها.

ففي هذا الأسلوب، كما ترى، فصاحة الألفاظ، وسهولة النطق بها، وإيضاح المعاني بالبيان البليغ المؤثر في النفس، الذي يأخذ بالألباب مع مناسبتها لموضوع الخطبة، وابتعادها عن الوقوع في عيب الطول الممل؛ لأن المقصود من الخطبة –كما تقدم– هو إفهام المخاطبين وإقناعهم بمضمون الكلام الموجه إليهم.

علم البيان

مدخل إلى علم البيان

البيان في اللغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور: "رد البيان ما يبني به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيء: اتضح فهو بيّن. واستبان الشيء: ظهر. والبيان: الفصاحة واللسن، وكلام بيِّنٌ فصيح. والبيان: الإفصاح مع ذكاء. والبين من الرجال: الفصيح والسمح اللسان. البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ.

البيان في القرآن الكريم:

هناك إشارات عدة إلى البيان؛ منها: قوله تعالى: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران:138]، ومنها: قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَن (1) عَلَّمَ الْقُرْآن (2) خَلَقَ الإِنسَان (3) عَلَّمَهُ الْبَيَان (4)**﴾ [الرحمن:1-4].

البيان في الحديث الشريف:

قال رسول الله –ﷺ–: ((إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة)).

وظلت كلمة البيان تحمل هذه المعاني العامة حتى إذا ما جاء العصر العباسي دخلت الدراسات البلاغية، واستعملت استعمالاً ذا دلالة خاصة، ولم يبق معناها ثابتاً عند علماء البلاغة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم، وإنما تطور بتطور بحوثها حتى استقر على يد السكاكي ومن سار على منهجه، فكان لها دلالة اصطلاحية لا ينصرف الذهن حينما تذكر إلّا إليها، وهو: "علم يعرف ورود المعنى بطرق مختلفة مع وضوح الدلالة عليه".

البيان عند العلماء:

1- الجاحظ: (255هـ)، في كتابه: (البيان والتبيين):

البيان عنده: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير؛ حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدلول الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع هو: الفهم والإفهام، فأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

2- وهب بن منبه: في كتابه: (البرهان في وجوه البيان):

فقد تابع الجاحظ في رأيه، ولم يأت بجديد.

3- الرومّاني: (386هـ)، في كتابه: (النكت في إعجاز القرآن):

قسم البيان إلى أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة؛ لذا فالبيان عنده غير محدد.

4- ابن رشيق القيرواني: (463هـ)، في كتابه: (العمدة):

البيان عنده: الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير علة، وإنما قيل ذلك؛ لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم البيان، وعبارة: "الكشف عن المعنى" قريبة من عبارة الجاحظ: "البيان: اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى".

5- ابن سنان الخفاجي: (466هـ)، في كتابه: (سرّ الفصاحة):

لم يحدد ابن سنان معنى البيان؛ بل لم يشر إليه، وسمى البلاغة: فصاحة بمعناها الواسع، وتكلم عن شروط الفصاحة في اللفظة الواحدة، وشروطها في الكلام، وما يختص بالتأليف.

6- عبد القاهر الجرجاني (471هـ):

عدّ الجرجاني البلاغة والفصاحة والبيان أمراً واحداً، وليس في كلامه ما يدل على البيان بمعناه المعروف، وإن كانت الموضوعات التي تحدث عنها في أسرار البلاغة تدخل في علم البيان.

7- ابن الأثير: (637هـ)، في كتابه: (المثل السائر):

أخذ البيان عند ابن الأثير معنى واسعاً، وهو: لتأليف النظم والنثر، ويحتاج صاحب صناعة تأليف الكلام إلى آلات كثيرة، وهي: معرفة علم العربية، وأمثال العرب، وأيامهم، والاطلاع على مؤلفات المتقدمين، والتحفظ الكثير، ومعرفة الأحكام السلطانية، وحفظ القرآن الكريم، وعلم العروض...

وخلاصه جهود السابقين: أن البيان عندهم قد أخذ معنىً واسعاً يدل على البلاغة كلها؛ إذ يجمعون على أن البيان هو: **الإفصاح عما في النفس من المعاني والأحاسيس.** وهذا معنى أدبي جميل، أعطى البلاغة حياة، وأكسبها رونقاً، وفتح أمامها السبل؛ لتخوض في موضوعات أدبية بديعة، وتكون للمؤلفين آراء نقدية طريفة.

8- السكاكي: (626هـ)، في كتابه: (مفتاح العلوم، التلخيص):

لم يبق هذا المفهوم الواسع للبيان؛ بل نجد السكاكي يضع للبلاغة قواعدها المنطقية، وقسمها إلى: المعاني والبيان، وألحق بهما: المحسنات (علم البديع)، ووضع لكل قسم تعريفاً دقيقاً، وحدد مباحثه وفنونه.

قال في تعريف البيان: "أما علم البيان فهو: معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة؛ في وضوح الدلالة عليه والنقصان؛ ليحترز بالوقوف على ذلك الخطأ في مطابقة الكلام؛ لتمام المراد منه".

وقد أدخل السكاكي الدلالات في تقسيم الموضوعات، ويرجع له الفضل إلى التعرض لأنواع الدلالات: (اللفظ، والتخمين...)، وأصبحت موضوعات علم البيان عنده: التشبيه، المجاز بأنواعه، الكناية ...

9- الخطيب القزويني: (739هـ)، في كتابه: (الإيضاح):

لقد سار على هدى السكاكي، وعرّف البيان بقوله: "هو: علم يعرف إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"، وقسَّمه كما قسَّمه السكاكي.

واستمر البيان على هذا التقسيم، وأصبحت دلالته محددة في نطاق مباحث التشبيه، والمجاز بأنواعه، والكناية؛ بحيث لا ينصرف الذهن إلى غير ذلك حينما نطلق عبارة: **علم البيان**.

الأسئلة:

س: ألف كتاب: الإيضاح ....، وحدَّد مباحث ... علم البيان في: ....، ....، ....

س: من الجهود في علم البلاغة التي قدمها السكاكي: أنه وضع للبلاغة ....، ....، وقسمها إلى ....، ....، ....

س: انسب الكتب الآتية إلى مؤلفيها: (البيان والتبيين – إعجاز القرآن – العمدة – سر الفصاحة – دلائل الإعجاز – المثل).

التشبيه

يُعَدُّ التشبيه من أقدم صور البيان ووسائل الخيال، وأقربها إلى الفهم والأذهان، وقد مار هذا الفن كغيره من الفنون الأخرى بمراحل كثيرة، تطور فيها، وأصبح من أهم وسائل البيان عند العرب.

أولاً: تعريف التشبيه:

التشبيه لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: "الشِّبه والشَّبه والشبيه: المثل، والجمع: أشباه، وأشبه الشيء والشيء: ماثله". والتشبيه: التمثيل. والمَثَل: الشَبَه؛ يُقَالُ: مِثْل ومَثَل، وشِبْه وشَبَه، بمعنى واحد.

التشبيه اصطلاحاً: التشبيه عند البلاغيين له أكثر من تعريف، وهذه التعاريف وإن اختلفت لفظاً؛ فإنها متفقة المعنى، وهذه بعض تلك التعاريف:

- **عرفه التنوخي فقال:** "التشبيه هو: الإخبار بالشبه، وهو: اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر، ولا يستوعب جميع الصفات".
- **وعرفه الخطيب القزويني فقال:** "التشبيه هو: الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى".

ثانياً: أركان التشبيه:

للتشبيه أربعة أركان، وهي:

1- المشبه. 2- المشبه به. 3- أداة التشبيه. 4- وجه الشبه.

ويطلق على المشبه والمشبه به اسم: طرفي التشبيه، وهما/ الركنان الأساسيان في التشبيه.

تقسيم التشبيه باعتبار المشبه والمشبه به:

ينقسم التشبيه باعتبار المشبه والمشبه به إلى أربعة أقسام، وهي:

الأول: أن يكونا حسيين، أي: يدرك كل واحد منهما بإحدى الحواس؛ كقوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِين (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُون (49)**﴾ [الصافات:48–49].

الثاني: أن يكونا عقليين، لا يدركان بالحس، بل بالعقل؛ كتشبيه الجهل بالموت.

الثالث: تشبيه المعقول بالمحسوس؛ كقوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**﴾ [إبراهيم:18].

الرابع: تشبيه المحسوس بالمعقول؛ كقول الشاعر:

كأن النجوم بين دُجاها ... سنن لاح بينهن ابتداعُ

الشاهد (الأخير): أراد الشاعر أن يوضح سنة الرسول الكريم، وكيف تنظم حياة الناس؛ فشبهها بالنجوم، ويوضح أثر البدع، وكيف تغير الضوابط والنواميس والقوانين، ووجه الشبه: الوضوح والظهور في كل.

ثالثاً: أداة التشبيه:

تعريف أداة التشبيه، هي: كل لفظ يدل على المماثلة والاشتراك.

وهي: حرفان، وأسماء، وأفعال، وكلها تفيد قرب المشبه من المشبه به في صفته.

- فالأسماء هي: مثل، شبه، شبيه، وغيرها.
- والأفعال هي: حسب، خال، ظن، يشبه، تشابه.
- والحرفان هما: الكاف، وكأن.

أما الكاف: فهي الأصل؛ لبساطتها، والأصل فيها: أن يليها المشبه به؛ كقول الشاعر:

أنـــا كالمـــاء إن رضـــيت صـــفاء وإذا مـــا ســـخطت كنـــت لهيبـــا

وأما كأن: فتدخل على المشبه، أو يليها المشبه؛ كقول الشاعر:

كـــأن أخلاقـــك فـــي لطفهـــا ورقـــة فيهـــا نســـيم الصـــباح

وينقسم التشبيه باعتبار الأداة إلى قسمين، هما:

الأول: مُرسَل، وهو: التشبيه الذي ذُكِرَتْ فيه الأداة؛ كقول الشاعر:

كـــالبحر يقـــذف للقريـــب جـــواهراً جـــوداً ويبعـــث للبعيـــد ســـحائبا

وقول الشاعر:

العمـــــر مثـــــل الضـــــيف أو كـــــالطيف لـــــيس لـــــه إقامـــــة

وقول المتنبي في هجاء إبراهيم بن إسحاق:

وإذا أشـــــار محـــــدثاً فكأنـــــه قـــــراد يقهقـــــه أو عجـــــوز تلطـــــمُ

الثاني: التشبيه المؤكد، وهو: ما حُذِفَتْ منه الأداة، وتأكيد التشبيه حاصل من ادعاء أن المشبه عين المشبه به؛ كقوله تعالى تصويراً لبعض ما يرى يوم القيامة: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾ [النمل:88]، أي: أن الجبال ترى يوم ينفخ في الصور تمر كمر السحاب، أي: تسير في الهواء كسير السحاب الذي تسوقه الرياح، كقول الشاعر:

بـــدت قمـــراً ومالـــت غصـــن بـــان وفاحـــت عنبـــراً ورنـــت غـــزالاً

وقول آخر:

ترنـــو إلـــيّ بعـــين الظبـــي مجهشـــةً وتمســـح الطـــل فـــوق الـــورد بـــالعنم

(والتشبيه المؤكد أبلغ من التشبيه المرسل وأوجز، لماذا؟)

رابعاً: **وجه الشبه**:

تعريف وجه الشبه، هو: الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به تحقيقاً؛ كتشبيه الشعر بالليل في السواد، أو تخيلاً؛ كتشبيه السيرة الحسنة بالمسك.

وينقسم التشبيه باعتبار وجهه إلى قسمين، هما:

الأول: مجمل، وهو التشبيه الذي لم يذكر وجهه؛ كقول النابغة:

فإنـــك شـــمس والملـــوك كواكـــب إذا طلعـــت لـــم يبـــد مـــنهن كوكـــب

وقول الآخر:

إنمـــــا الـــــدنيا كبيـــــتٍ نســـــجه مـــــن عنكبـــــوت

الثاني: مُفصل، وهو: ما ذكر فيه وجه الشبه؛ كقول المعري:

أنـــت كالشـــمس فـــي الضـــياء وإن جـــاوزت كيـــوان فـــي علـــو المكـــانِ

وقول آخر:

أنـت كـالبحر فـي السـماحة والشـمس علـــو والبـــدر فـــي الإشـــراق

خامساً: أغراض التشبيه:

تتنوع أغراض التشبيه، وهي تعود في الغالب إلى المشبه، وقد تعود إلى المشبه به، وهذه الأغراض هي:

الأول: بيان مكان وجود المشبه، وذلك حين يسند إلى المشبه أمر مستغرب لا تزول غرابته إلا بذكر شبيه له؛ كقول الشاعر:

دانٍ إلــى أيــدي العفــاة وشاســع   عــن كــل نــد فــي النــدى وضــريب

كالبــدر أفــرط فــي العلــو وضــوؤه   للعصــبة الســارين جــدٌ قريــب

الشاهد: وصف الشاعر ممدوحه بأنه قريب للمحتاجين، بعيد المنزلة، بينه وبين نظرائه في الكرم مسافة شاسعة، وعندما أحس الشاعر أنه وصف ممدوحه بوصفين متضادين، هما: القرب والبعد في وقت واحد، أراد أن يبيّن أن ذلك ممكن، وأنه ليس في الأمر تناقض؛ ولهذا شبه الممدوح في البيت الثاني بالبدر الذي هو بعيد في السماء، ولكن ضوءه قريب جداً للسارين بالليل؛ لذا فإن الغرض من التشبيه: بيان إمكان وجود المشبه.

الثاني: بيان حال المشبه، وذلك حينما يكون المشبَّه مجهول الصفة، غير معروف بها قبل التشبيه؛ فيغيره التشبيه الوصف؛ كقول الشاعر:

فإنــك شــمس والملــوك كواكــب   إذا طلعــت لــم يبــد مــنهن كوكــب

الشاهد: شبَّه الشاعر الممدوح بالشمس، وشبه غيره من الملوك بالكواكب؛ لأن عظمة ممدوحه تغضّ من عظمة كل ملك، كما تُخفي الشمس الكواكب، ولما كانت حال الممدوح وغيره من الملوك وكلّ منهما شبه مجهولة غير معروفة؛ فقد أتى بالمشبه

لبيان حال الممدوح مع غيره من الملوك، كحال الشمس مع الكواكب؛ فإذا ظهر أخفاهم كما تخفي الشمس الكواكب بطلوعها.

الثالث: بيان مقدار حال المشبه، من حيث القوة والضعف والزيادة والنقصان، وذلك إذا كان المشبه معروف الصفة قبل التشبيه معرفة إجمالية، ثم يأتي التشبيه لبيان مقدار هذه الصفة، كقول عنترة:

فيهـــا اثنتـــان وأربعـــون حلوبـــة ســـوداً كخافيـــة الغـــراب الأســـحم

الشاهد: يصف الشاعر حمولة أهل محبوبته من النياق، إنها اثنان وأربعون ناقة حلوبة، ثم وصفها بأنها سود، والنوق السود هي أنفس الأبل وأعز ما عند العرب، ولبيان مقدار السواد؛ شبهها بخافية الغراب الأسحم، فالغرض من التشبيه هو: بيان مقدار حال المشبه. ومنه أيضاً قول المتنبي يصف أسداً:

مـــا قوبلـــت عينـــاه إلا ظنتـــا تحـــت الـــدجى نـــار الغريـــق حلـــولا

وقول الشاعر:

كـــأن مشـــيتها مـــن بيـــت جارتهـــا مـــرّ الســـحابة لا ريـــث ولا عجـــل

الرابع: تقرير حال المشبه، أي: تثبيت حاله في نفس السامع، وتقوية شأنه لديه، كما إذا كان ما أسند إلى المشبه يحتاج إلى التأكيد والإيضاح بالمثال؛ كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ**﴾ [الرعد:14].

الشاهد: أن سياق الآية هو الحديث عن حال عباد الأوثان الذين يتخذون آلهة غير الله سبحانه، وتصفهم أنهم إذا دعوا آلهتهم لا يستجيبون لهم، ولا يعود عليهم ذلك الدعاء بالنفع، وقد أراد الله سبحانه أن يقرر هذه الحال ويبثها في الأذهان؛ فشبه هؤلاء المشركين بمن يبسط كفيه إلى الماء ليشرب، فلا يصل الماء إلى فمه حتماً؛ لأنه

يتسرّب من بين أنامله ما دامت كفاه مبسوطتين، فالغرض من التشبيه هنا هو: تقرير حال المشبه، ومنه قول الشاعر:

إن القلـــــوب إذا تتــــــافر ودهـــــا مثــل الزجاجــة كســرها لا يشــعبُ

الخامس: تزيين المشبه، ويقصد به: تحسين المشبه والترغيب فيه عن طريق تشبيهه بشيء حسن الصورة أو المعنى؛ كقول الشريف الرضي:

أحبـــكِ يـــا لـــون الشـــباب لأننـــي رأيتكمـــا فـــي القلـــب والعـــين توأمـــا

سـكنتِ سـواد القلـب إذ كنـت شـبهه فلـم أدرِ مـن أعـز مـن القلـب منكمـا

الشاهد: شبّه الشاعر حبيبته بحبة القلب السوداء: (سكنت سواد القلب إذ كنت شبهه)؛ لأن هذه الحبة هي مركز الحياة في الإنسان، والغرض من التشبيه هنا هو: تزيين المشبه، وبيان أن منزلته في نفس الشاعر منزلة المشبه به.

السادس: تقبيح المشبه، وذلك إذا كان المشبه قبيحاً قبحاً حقيقياً أو اعتبارياً؛ فيؤتى له بمشبِّه به أقبح منه، يولِّد في النفس صورة قبيحة عن المشبّه؛ تدعو إلى النفور منه؛ كقول الشاعر:

وإذا أشـــــــار محــــــــدثاً فكأنـــــــه قـــــراد يقهقـــــه أو عجــــوز تلطـــمُ

الشــاهد: شـبه الشـاعر المهجـو عـن حديثـه بـالقرد يقهقـه، أو العجـوز تلطـم، والغـرض مــن التشـبيه: تقبـيح المشـبه؛ لأن قهقهــة القـرد ولطـم العجـوز أمــران مستكرهان تنفر منهما النفس.

والجدير بالذكر هنا: أن جميع هذه الأغراض ترجع في الغالب إلى المشبه.

التشبيه المقلوب

تعريف التشبيه المقلوب، هو: جعل المشبّه مشبهاً به، بادعاء أن وجه الشبه فيه أقوى وأظهر؛ كقول الشاعر ابن المعتز في تشبيه الهلال:

ولاح ضـــوء قميـــر كـــاد يفضـــحنا		مثـل القلامـة قـد قُـدّتْ مـن الظُفـر

الشاهد: إذ صور الهلال بالقلامة؛ لأن من العادة أن تشبّه القلامة بالهلال، فلما صار ذلك مشهوراً متعارفاً حسن عكس القضية فيه.

ومنه قول محمد بن وهيب الحميري في ذات التشبيه:

وبـــدأ الصـــباح كـــأن غرتـــه		وجـــه الخليفـــة حـــين يمتـــدح

فالمشبه: ضوء الصباح، والمشبه به: وجه الخليفة عند سماعه المديح؛ فالتشبيه هنا مقلوب، والأصل فيه العكس؛ لأن المألوف أن يشبه الشيء بما هو أقوى منه وأوضح منه في وجه الشبه؛ ليكتسب منه قوة ووضوحاً، ولكن الشاعر تفنناً منه في التعبير عكس القضية، وقلب التشبيه لغرض المبالغة، والادعاء أن الشبه أقوى في المشبه.

التشبيه الضمني

تعريف التشبيه الضمني، هو: تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة؛ بل يلمحان في التركيب، وهذا الضرب من التشبيه يؤتى به؛ ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن؛ كقول أبي فارس الحمداني:

ســـيذكرني قـــومي إذا جـــد جـــدهم وفـــي الليلـــة الظلمـــاء يفتقـــد البـــدر

الشاهد: يريد الشاعر أن يقول: أن قومه سيذكرونه عند اشتداد الخطوب والأهوال عليهم، ويطلبونه فلا يجدونه، ولا عجب في ذلك؛ لأن البدر يفتقد ويطلب عند اشتداد الظلام، وهنا إيحاء يتضمن تشبيه غير مصرح به، ومنه قول أبي تمام:

لا تنكـرِي عَطَـلَ الكـريم مـن الغنـي فالســـيل حـــرب للمكـــان العـــالي

الشاهد: يخاطب الشاعر امرأة قائلاً لها: لا تستنكري خلو الرجل الكريم من المال، وهذا ليس عجيباً؛ لأن قمم الجبال، وهي أشرف الأماكن وأعلاها، لا يستقر فيها ماء السيل، وهنا تلميح تشبيه ضمني؛ يشبه الرجل الكريم المحروم بقمة الجبل وقد خلت من ماء السيل، ولكنه لم يضع ذلك صريحاً؛ بل أتى بجملة مستقلة وضمنها هذا المعنى في صورة برهان؛ كقول المتنبي:

مـــن يهـــن يســـهل الهـــوان عليـــه مـــا لجـــرح بميـــت إيـــلام

الاستعارة

أولاً: **تعريف الاستعارة**:

- **عرفها الجاحظ (255هـ)**، -وهو أول من عرفها-؛ فقال: "الاستعارة: تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه".
- **وعرفها قدامة بن جعفر**؛ فقال: "هي: استعارة بعض الألفاظ في مواضع بعض على التوسع والمجاز".

ولا بد للاستعارة من قرينة موضحة ومانعة من إيراد المعنى الأصلي؛ كقول القائل: "رأيت أسداً"، والمراد: الرجل؛ لكننا لا نفهم إلا ذلك الحيوان المفترس، ولكن لو قيل: "رأيت أسداً لا يقاتل الأعداء"؛ دل على أنها استعارة. وشاهد آخر:

وصاعقة من نصله تنكفي بها على أرؤس الأقران خمس سحائب

الشاهد: ذكر خمس سحائب، والتي تعني أصابع اليد، وهذه هي القرينة، وقد تكون القرينة حالية تفهم من السياق العام، وهو الغالب الأعم.

ثانياً: **أقسام الاستعارة**:

يقسِّم البلاغيون الاستعارة من حيث ذكر أحد طرفيها إلى قسمين؛ هما:

القسم الأول: الاستعارة التصريحية، وهي: ما صرح فيها بلفظ المشبه به، أو ما استعير لفظ المشبه به للمشبه، كقول الله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [إبراهيم:1].

الشاهد: استعير لفظي: (الظلمات – والنور)، وهما المشبه به؛ فاستعير لفظ: (الظلمات) للكفر والظلال؛ لتشابههما في عدم اهتداء صاحبها، وكذلك استعير لفظ:

(النور) للإيمان؛ لتشابههما في الهداية؛ فحذف المشبه، وهما: (الكفر – والإيمان)، وصرح بلفظ المشبه به، وهما: (الظلمات – والنور)، إذن: فالاستعارة تصريحية، ومن ذلك قول المتنبي:

فــي الخــد إن عــزم الخلــيط رحــيلا مطـــرٌ تزيـــد بـــه الخـــدود نحـــولا

الشاهد: شبه الشاعر الدموع بالمطر؛ فحذف المشبه: (الدموع)، وصرح بلفظ المشبه به: (المطر)؛ إذن: فالاستعارة تصريحية.

ومنها قول الشاعر يمدح سيف الدولة عندما قدم عليه رسول الروم:

وأقبـل يمشــي فــي البســاط فمــا درى إلـى البحـر يسعى أم إلـى البـدر يرتقي

الشاهد: حذف الشاعر المشبه، وهو: الخليفة، وصرح بالمشبه به: (البحر – والبدر)؛ إذن: فالاستعارة تصريحية.

القسم الثاني: الاستعارة المكنية، وهي: ما أخذ فيها المشبه به أو المستعار منه، ورمز له بشيء من لوازمه، كقول الشاعر:

وإذا المنيـــــة أنشـــــبت أظفارهـــــا أبصـــــرت كـــــل تميمـــــة لا تنفـــــع

الشاهد: شبه الشاعر المنية بحيوان مفترس؛ لعلاقة بينهما، وهي: إزهاق الأرواح، ثم حذف المشبه به: (الحيوان المفترس)، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو: (أنشبت أضافرها)؛ إذن: فالاستعارة مكنية، ومنها قول أبي العتاهية يهني المهدي بالخلافة:

أتتـــــه الخلافـــــة منقـــــادة إليـــــه تجرجـــــر أذيالهـــــا

الشاهد: شبه الشاعر الخلافة بفتاة جميلة تلبس ثوباً طويل الذيل؛ لعلاقة بينهما وهي: المنظر والحسن، ثم حذف المشبه به: (الفتاة)، ورمز إليها بشيء من لوازمه، وهو: (الانقياد)؛ إذن: فالاستعارة مكنية، وقال الشاعر:

مـواطن لـم يسـحب بهـا الغنـي ذيلـه وكـم للعـوالي بينهمـا مـن مسـاحب

الشاهد: المشبه الغني، والمشبه به الإنسان، ثم حذف المشبه به: (الإنسان)، ورمز له بشيء من لوازمه وهو: (سحب الذيل)؛ إذن: فالاستعارة مكنية.

ويقسم البلاغيون الاستعارة تقسيما آخر باعتبار لفظها إلى قسمين:

القسم الأول: استعارة أصلية، وهي: ما كان المستعار أو اللفظ الذي جرت فيه اسما جامداً غير مشتق، كقول الشاعر يرثي ولده:

يـا كوكبـاً مـا كـان أقصـر عمـره وكـذاك عمـر كواكـب الأسـحار

الشاهد: شبه الشاعر الابن بالكوكب؛ بجامع علو الشأن لهما، ثم استعار اللفظ الدال على المشبه به (الكوكب) للمشبه (الابن)؛ من باب الاستعارة التصريحية؛ وذلك لأنه صرح بلفظ المشبه به، وعند تأملنا للمستعار (الكوكب) وجدناه اسماً جامداً غير مشتق؛ إذن: فالاستعارة أصلية، ومنها قول الشاعر:

حـول أعشاشـها علـى الأشـجار قـد سـمعت القيـان وهـي تغنـي

الشاهد: شبه الشاعر الطيور المغردة بالقيان، ثم استعير لفظ: (القيان) الدال على المشبه به؛ للطيور على سبيل الاستعارة التصريحية، واللفظ الدال على المستعار وهو: (القيان) للمشبه الطيور نجده اسماً جامداً غير مشتق؛ إذن: فالاستعارة أصلية، ومنها قول الشاعر:

حملـــت إليـــه مـــن لســـاني حديقـــة   سقاها الحجا سقي الرياض السحائب

الشـــاهد: المشـبه: (الشـعر)، المشـبه بـه: (الحديقـة)، فصـرح بلفـظ المشـبه بـه؛ فهـي اسـتعارة تصـريحية، والاسـم الـذي جـرت فيـه الاسـتعارة الحديقـة جامـد؛ إذن: فالاستعارة أصلية.

القسم الثاني: الاستعارة التبعية، وهي: ما كان اللفظ المستعار أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسما مشتقاً أو فعلاً، كقول الشاعر:

عضـــــنا الـــــدهر بنابـــــه   ليـــت مـــا حـــل بنـــا بـــه

الشـــاهد: شـبه الـدهر بحيـوان مفتـرس؛ بجـامع الإيـذاء، ثـم حـذف المشـبه بـه: (الحيـوان)، ورمـز لنـا بشـيء مـن لوازمـه: (العـض)، وعنـد تأمـل اللفـظ الـذي جـرت فيـه الاسـتعارة (عضـنا) نجـده فعـلاً؛ إذن: فالاسـتعارة تبعيـة، ومنهـا قـول الشاعر يخاطب طائراً:

أنـــت فـــي خضـــراء ضـــاحكة   مـــن بكـــاء العـــارض الهـــتن

الشاهد: شبهت الأرض الخضراء بالإنسان، ثم حذف المشبه به وذكر شيء من لوازمه هو: (الضحك)، واللفظ الذي جرت فيه الاستعارة: (ضاحكة) مشتق من الضحك؛ إذن: فالاستعارة تبعية.

وتنقسم الاستعارة المكنية من حيث الملائم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الاستعارة المرشحة، وهي: التي يذكر معها ملائم المشبه به، أي: المستعار منه، كقوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ**﴾ [البقرة:16].

الشاهد: شبه الاختيار بـ (الاشتراء)، ثم حذف المشبه به: (الاختيار)، وصرح بلفظ المشبه: (الاشتراء) على سبيل الاستعارة التصريحية، وعند الوقوف على اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة: (اشتروا)؛ نجده قد ذُكِرَ معها لفظٌ يلائم المشبه به، وهو: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾؛ فالاستعارة مرشحة.

القسم الثاني: الاستعارة المجردة، وهي: ما ذكر معها ملائم المشبه، أي: المستعار له، كقول الشاعر:

يــــؤدون التحيـــــة مــــــن بعيــــــد إلـــــى قمــــر مــــن الإيـــوان بـــاد

الشاهد: المشبه: (الممدوح)، المشبه به: (القمر)، ولفظ المشبه به موجود على سبيل الاستعارة التصريحية، وعند تأمل الاستعارة نجد أنه قد ذكر معها ما يلائم المشبه، وهو: (من الإيوان باد)؛ إذن: فالاستعارة مجردة.

القسم الثالث: الاستعارة المطلقة، وهي: ما خلت من ملائمات المشبه به والمشبه، وهي كذلك ما ذكر معها ما يلائم المشبه به والمشبه معاً، كقول الشاعر:

قـــوم إذا الشـــر أبـــدى ناجذيـــه لهـــم طـــــاروا إليـــــه زرافـــــات ووحــــــدانا

الشاهد: المشبه: (الشر)، والمشبه به: (الحيوان المفترس)، ثم حذف المشبه به: (الحيوان)، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو: (إثبات إبداء الناجذين للشر)، فهذه الاستعارة التي استوفت قرينتها قد خلت من كل ما يلائم المشبه والمشبه به؛ إذن: فالاستعارة مطلقة، ومنها: قول كثير عزة:

رمتنـــي بســـهم ريشـــه الكحـــل لـــم يضـــر ظـــواهر جلـــدي وهـــو للقلـــب جـــارح

الشاهد: المشبه: (العين)، والمشبه به: (السهم)، فهذه الاستعارة بعد استيفاء القرينة، نجد أنه قد ذكر معها ما يلائم المشبه: (الطرف أو العين)، وهو: (الكحل)، وما يلائم المشبه به: (السهم)، وهو: (الريش)؛ إذن: فالاستعارة مطلقة.

ثالثاً: **بلاغة الاستعارة**:

مكان الاستعارة من البلاغة:

تعد الاستعارة صورة من صور التوسع والمجاز في الكلام، فمن سماتها وخصائصها التي تذكر:

أولاً: أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من الألفاظ؛ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر، كما يرى عبد القاهر الجرجاني.

ثانياً: التشخيص والتجسيد في المعنويات، وبث الحركة والحياة والنطق في الجماد، يقول الله –تبارك وتعالى– في تصوير العذاب الذي ينتظر الكافرين: ﴿**وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِير (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُور (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير (8)**﴾ [الملك:6–8].

الشاهد: استعار الشهيق للصوت الفظيع، واستعار (تميّز) للفعل (تنشق) من غير تباين، واستعارة (الغيض) لشدة الغليان. فجميع الاستعارات السابقة حققت غرضين من أغراض الاستعارة، هما: الإيجاز والبيان، كما تضافرت معاً في رسم صورة لنار جهنم، وإبرازها بطريقة تنخلع القلوب من هولها رعباً وفزعاً؛ فالاستعارة هي التي لونت المعاني الحقيقية في الآية كل هذا التلوين، وبثت فيها كل هذا القدر من التأثير، الذي ارتفع ببلاغتها إلى حد الإعجاز.

ثالثاً: المبالغة في إبراز المعنى الموهوم إلى صورة الشاهد، كقوله –عليه الصلاة والسلام–: ((لا تستضيئوا بنار المشركين)).

الشاهد: استعار النار هنا للرأي والمشورة، أي: لا تهتدوا برأي المشركين، ولا تأخذوا بمشورتهم، فرأي المشركين أمر معنوي يدرك بالعقل، وتمثيله بالنار هو إظهار له في صورة حسية.

رابعاً: بثّ الحياة والنطق في الجماد -كما ذكرنا سابقا-، كقول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين**﴾ [فصلت:11].

الشاهد: فكل من السماء والأرض جماد تحول بالتوسع الذي هيأته الاستعارة إلى إنسان حي ناطق.

وحسبنا ما ذكرنا من خصائص الاستعارة؛ للإبانة عن مكانتها في البلاغة.

س: استخرج الشاهد البلاغي ثم وضحه:

قال الحجاج بن يوسف: (إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها).

الكـنايـة

أولاً: تعريف الكناية:

الكناية لغة: مصدر كنيت بكذا عن كذا؛ إذا تركت التصريح به؛ كقوله تعالى: ﴿**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾ [ص:32]، عن الشمس، وقوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي**﴾ [القيامة:26]، عن النفس، وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:26]، أي: الأرض.

الكناية اصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى.

ثانياً: تاريخ الكناية عند علماء العربية والبلاغة:

1- **أبو عبيدة معمر بن المثنى:** ويُعَدّ أول من عرض لها في كتابه: (مجاز القرآن؛ فقد استعمل الكناية بمعنى الضمير.

2- **الجاحظ:** استعمل الكناية بمعناها العام، وهو: التعبير عن المعنى تلميحاً لا تصريحاً.

3- **المبرد:** في كتابه: (الكامل)، فقد ذكر أنها تأتي على ثلاثة أوجه:

أ- للتعمية والتغطية.

ب- للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معنا من غيره.

ج- للتعظيم والتفخيم.

4- **ابن المعتز:** فقد عاد الكتابة والتعريض من محاسن البديع.

5- **قدامة بن جعفر:** ذكرها في باب المعاني الدالة على الشعر، وعدها نوعاً من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، وسماها بـ: (الأرداف).

6- **أبو هلال العسكري:** عرف الكناية بـ: التعريض، كأنما يعتبرها أمراً واحداً.

س: كيف جاءت الكناية في القرآن الكريم؟

ج: جاءت الكناية في القرآن الكريم موحية وموجزة ومصورة للمعاني خير تصوير، كقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ [الإسراء:29]، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [الحجرات:12].

ثالثاً: أقسام الكناية:

قسم السكاكي الكناية إلى ثلاثة أقسام، وهي:

القسم الأول: كناية عن موصوف، وهي: التي يطلب بها نفس الموصوف، بشرط أن تكون الكناية مختصة بما يكنى عنه؛ منها قول الشاعر يصف قومه:

الضاربين بكل أبيض مخذم ... والطاعنين مجامع الأضغان

الشاهد: مجامع الأضغان: كناية عن القلب، ومنها قول أبي تمام:

سبق المشيب إليه حتى ابتزه ... وطن النّهى عن مفرق وقذال

الشاهد: وطن النهى: كناية عن الرأس، ومنها قول المعري:

سليل النار دقّ ورقّ حتى ... كأن أباه أورثه السلال

الشاهد: سليل النار: كناية عن السيف.

القسم الثاني: الكناية المطلوب بها نفس الصفة، أي: التي يطلب بها نفس الصفة المعنوية، كالجود والكرم، كقولنا: (فلان طويل النجاد)؛ كناية عن صفة الطول، و(فلانة بعيدة مهوى القرط)؛ كناية عن طول عنقها، و(فلان جبان الكلب وكثير الرماد). وكقول الشاعر:

أنـا الرجـل الضـراب الـذي تعرفونـه   خشـاش كـرأس الحيـة المتوقـد

الشاهد: كنى هنا عن صفة لحمه ودقة رأيه وتوقد ذهنه وذكائه، ومنها قول الشاعر:

ولسـنا علـى الأعقـاب تـدمى كلومنـا   ولكـن علـى أقـدمنا تقطـر الـدما

الشاهد: هنا كناية عن الشجاعة والإقدام؛ لأن الشجاع يواجه الأعداء؛ فيضرب من المقدمة؛ لذا تقطر الدماء على قدميه في حين يضرب الجبان عند فراره على قفاه؛ فتسيل الدماء على عقبيه.

القسم الثالث: الكناية التي يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف، (الكناية عن النسبة)، ويراد بها: إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه؛ ومن ذلك قول زياد الأعجم:

إن السـماحة والمـروءة والنـدى   فـي قبـة ضـربت علـى ابـن الحشـرج

الشاهد: أراد الشاعر إثبات هذه الصفات للممدوح من دون أن يصرح بهذا الإثبات له؛ فجعله في قبة، وجعلها مضروبة عليه؛ فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريقة الكناية.

ملاحظة: تتمثل كناية النسبة أو التخصيص في العدول عن نسبة الصفة إلى الموصوف مباشرة، ونسبتها إلى ما له اتصال به، وأظهر علامة لهذه الكناية: أن يصرح فيها بالصفة؛ كما عرفنا من الأمثلة؛ ومن ذلك أيضاً قول الشنفرى يصف امرأة بالعفة:

يبيـت بمنجـاة عـن اللـوم بيتهـا   إذا مـا بيـوت بالملامـة خلـت

الشاهد: أراد أن يصف المرأة بالشرف والعفة، فجعل البيت الذي تسكنه بعيداً عن اللوم، وأن لا يذكر على ألسنة الناس، إذ قد يذكرون بيوتاً ويلومون ساكنيها، وعليه: فقد أثبت له الصفة المرادة، ومنها قول الشاعر:

الـــــــيمن يتبـــــــع ظلـــــــه والمجـــد يمشـــي فـــي ركابـــه

الشاهد: أراد الشاعر إثبات صفتي الكرم والجود؛ فجعل كلا من اليمن والمجد يرافقان الممدوح في حله وترحله، وحصل له ذلك عن طريق الكناية، ومنها قول أبي نواس:

فمـــا جـــازه جـــودٌ ولا حـــل دونـــه ولكـــن يســـير الجـــود حيـــث يســـير

الشاهد: أراد الشاعر هنا: أن ينسب إلى ممدوحه الكرم، أو أن يثبت له هذه الصفة، ولكنه بدل أن ينسب إليه الكرم بصريح اللفظ فيقول: (هو كريم)، كنى عن نسبة الكرم إليه بقوله: (يسير الجود حيث يسير)؛ لأنه يلزم من ذلك اتصافه به، ومنها قول آخر:

ومـــا يـــك فـــيّ مـــن عيـــب فـــإني جبـــان الكلـــب مهـــزول الفصـــيل

الشاهد: أن الشاعر كنّى عن كرم نفسه وكثرة قراه للضيفان؛ بجبن الكلب، وهزال الفصيل، ولو صرح لقال: إن جنابي مأهول وكلبي مؤدب، لا ينكر الضيف، ولا يهر في وجوههم، وإني أنحر النوق فأدع فصالها هزلى.

س: ما هي الأسباب التي تأتي من أجلها الكناية؟

ج: تتمثل أسباب الكناية بما يلي:

أولاً: التنبيه على عظم القدرة؛ كقوله تعالى: ﴿* **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [الأعراف:189]، كناية عن آدم –عليه السلام–.

ثانياً: فطنة المخاطب؛ كقوله تعالى في قصة النبي –ﷺ– وزيد: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾ [الأحزاب:40]، أي: زيد.

ثالثاً: ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص:23]، فقد كنى بالنعجة عن المرأة.

رابعاً: أن يفحش ذكره في السمع، فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع والذوق؛ كقوله تعالى عن عيسى وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة:75]، كناية عن قضاء الحاجة.

خامساً: تحسين اللفظ؛ كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات:49]، كناية عن النساء.

سادساً: قصد المبالغة؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:18]، إذ كنى سبحانه عن النساء بأنهن ينشأن في الترف.

سابعاً: قصد المبالغة في الشنيع؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:64]، كناية عن البخل، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:64]، كناية عن كرمه.

ثامناً: التنبيه عن مضرة؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:1]، أي: جهنم مصيره إلى الأبد، وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد:4]، أي: نمامة، ومصيرها أن تكون حطباً لجهنم.

الحقيقة والمجاز

أولاً: **تعريف الحقيقة**:

الحقيقة، هي: دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة.

وعرفها أبو الفتح عثمان بن جني فقال: الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة.

إذن: فمعنى الحقيقة: استعمال اللفظة في وضعها الأول، بحيث لا يتبادر الذهن إلى غير ذلك حينما تطلق.

ثانياً: **أقسام الحقيقة**:

تنقسم الحقيقة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الحقيقة اللغوية، وهي: ما وضعها واضع اللغة، ودلت على معاني مصطلح عليها في تلك المواضع؛ كألفاظ: العلم، الكتاب، الشمس؛ فإذا استعملت في معناها الأصلي فإنها تكون حقيقة، وإذا استعملت في غيره فإنها تكون مجازاً.

القسم الثاني: الحقيقة العرفية، وهي: التي نقلت من مسماها اللغوي إلى غيره بعرف الاستعمال، وذلك الاستعمال يكون عاماً، وقد يكون خاصاً.

القسم الثالث: الحقيقة الشرعية، وهي: اللفظة التي يستفاد من جهة الشرع لمعنى غير ما كانت عليه في أصل الوضع اللغوي، وهي أسماء شرعية؛ كالصلاة والزكاة والحج.

ولا يهتم البلاغيون بالحقيقة وأقسامها كثيراً، وإنما انصبت عنايتهم على المجاز وأساليبه.

ثالثاً: تعريف المجاز:

المجاز فن قديم عرفه المتقدمون، واستعملوه في كلامهم بعد أن تطورت اللغة.

المجاز لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: جزت الطريق، وجاز الموضع جوازاً ومجازاً وجازية وجاوزه وأجازه: سار فيه وسلكه.

المجاز اصطلاحاً: الانتقال من مكان إلى مكان، وأخذ هذا المعنى واستعمل للدلالة على نقل الألفاظ من معنى إلى آخر.

وعرف عبد القاهر الجرجاني المجاز بأنه: كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز.

رابعاً: أقسام المجاز:

للمجاز تقسيمات كثيرة، ولكن أوضح تقسيم انتهى إليه البلاغيون هو: تقسيمه إلى قسمين، وهما:

القسم الأول: المجاز العقلي، ويكون في الإسناد، أي: إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي.

القسم الثاني: المجاز اللغوي، وهو قسمان:

- الأول: المجاز الاستعاري، وقد سبق الحديث عنه.
- الثاني: المجاز المرسل، وسمي مرسلاً؛ لأنه أرسل من دون التقييد؛ لعلاقة مخصوصة، بعكس المجاز الاستعاري الذي اختص لعلاقة واحدة، هي: المشابهة.

خامساً: علاقات المجاز:

لقد توسع ابن القيم الجوزية، والعلوي، والزركشي، في بحث هذا النوع، وجمعوا له علاقات كثيرة، من أشهرها ما يلي:

الأولى: الجزئية، وهي: تسمية الشيء باسم جزئه، أي: إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ كقوله تعالى: ﴿**فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**﴾ [النساء:92]، أي: عبد مؤمن؛ إذ أطلق الرقبة –الجزء– وأراد الكل، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ [الأنفال:12]، أي: الأيدي، فذكر الجزء وأراد الكل، وكقوله تعالى: ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:27]، فأطلق الوجه وأراد الذات الإلهية، ومنه قول الشاعر:

وكم علمته نظم القوافي   فلما قال قافية هجاني

فالقافية: جزء من الشعر؛ فأطلق الجزء وأراد الكل (الشعر).

الثانية: الكلية، وهي: أن يذكر الكل ويراد الجزء؛ كقوله تعالى: ﴿**يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم**﴾ [البقرة:19]، فأطلق الأصابع (الكل)، وأراد الجزء (الأنامل فقط)، وقول الحق سبحانه: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا**﴾ [المائدة:38]، أي: بعض اليد، الذي هو الرسغ؛ إذ أطلق الكل وأراد الجزء.

الثالثة: السببية، وهي: أن يطلق لفظ السبب ويراد المسبب؛ كقوله تعالى: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح:10]، فأطلق اليد وهي السبب، وأراد المسبب، وهي: قدرته؛ لأن اليد سببها، ومنها قوله تعالى: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ [البقرة:185]، فلفظ الشهر هنا مجاز؛ لأن الشهر لا يرى ولا يشاهد، وإنما الذي يشاهد هو: الهلال الذي يظهر أول ليلة في الشهر، ويكون الهلال سبباً في وجود الشهر، أي: أطلق الشهر هنا مجاز مرسل، وأراد الهلال، والعلاقة هي: السببية.

الرابعة: المسببية، وهي: فيما إذا ذكر لفظ المسبب، وأريد السبب؛ كقوله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا**﴾ [غافر:13]، فقد أطلق الرزق الذي يكون المطر سبباً له، فيكون مجازاً مرسلاً، وعلاقته المسببية، وكقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾ [النساء:10]، أي: يأكلون مالاً تتسبب عنه النار عقاباً؛ فأطلق لفظ المسبب: النار، وأريد به السبب: المال، فيكون مجازاً مرسلاً، علاقته المسببية.

الخامسة: السبق، وهو: اعتبار ما كان، أي: تسمية الشيء باسم ما كان عليه؛ كقوله تعالى: ﴿**وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ**﴾ [النساء:2]، أي: الذين كانوا يتامى قبل بلوغهم سن التكليف؛ فيعتبر مجازاً مرسلاً علاقته السبق، ومنه: كقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا**﴾ [طه:74]، فسماه مجرماً باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام، ومنه قولنا: (شربت البن)، أي: قهوة البن، باعتبار ما كان.

السادسة: المحلية، وهي: فيما إذا ذكر لفظ المحل وأريد الحال فيه؛ كقوله تعالى: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَه**﴾ [العلق:17]، أي: المجتمعين فيه، أي: النادي؛ إذ أطلق المحل: النادي، وأريد من هم فيه: أي: الحال، وهنا مجاز مرسل علاقته المحلية، وكقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران:167]؛ إذ أطلق الأفواه وأريد اللسان؛ لأن القول عادة لا يكون إلا به.

السابعة: الحالية، وهي: عكس المحلية، فيما إذا ذكر لفظ الحال وأريد المحل؛ كقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون**﴾ [آل عمران:107]، فأطلق الرحمة، وهي معنى من المعاني، وأراد الجنة التي فيها الرحمة. وكقوله تعالى: ﴿**خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف:31]، أي: لباسكم؛ لحلول الزينة فيه، فالزينة هنا: مجاز مرسل، علاقته الحالية.

الثامنة: الآلية، وهي: فيما إذا ذكر اسم الآلة، وأريد الأثر الذي ينتج عنه؛ كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ [إبراهيم:4]؛ إذ أطلق اللسان التي هي آلة القول، وأراد لغة القوم، وهذا مجاز مرسل، علاقته الآلية، وكقوله تعالى: ﴿**تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا**﴾ [القمر:14]، فأطلق العين، وأراد الرؤيا، وهذا مجاز مرسل علاقته الآلية؛ لأن العين هي آلة الرؤيا، وكقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ**﴾ [الأنبياء:61]، أي: على مرأى منهم، فأطلق العين وأراد أثرها من الرؤيا.

التاسعة: العموم، وهو: إطلاق اسم العام، وإرادة الخاص؛ كقوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ**﴾ [الشورى:5]، فأطلق عامة من في الأرض، وأراد الخاص، وهم المؤمنين، وهنا مجاز مرسل علاقته العموم؛ لأنه أطلق العام وأراد الخاص.

العاشرة: الخصوص، وهو: عكس العلاقة السابقة، أي: إطلاق اسم الخاص، وإرادة العام؛ كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ [الأحزاب:1]، فالخطاب هنا للنبي –ﷺ– والمراد الناس جميعاً، وكقوله تعالى: ﴿**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ [التكوير:14]، أي: كل نفس.

الحادية عشرة: المجاورة، وذلك إذا ذكر الشيء وأريد مجاوره؛ كقول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

فأراد الشاعر بقوله: (شككت ثيابه): أي: شككت قلبه، وأي مكان آخر من جسمه يصيب منه الرمح مقتلاً؛ فالمجاز في كلمة (ثيابه)، التي أطلقت وأريد بها ما يجاوره من القلب، أو أي مكان آخر في الجسم يصيب السهم منه مقتلاً؛ فأطلق الثياب وأراد ما يجاورها من مقاتل الجسم بأي سلاح كان؛ كرمح، مجاز مرسل علاقته المجاورة.

المجاز العقلي

أولاً: تعريف المجاز العقلي:

يكون المجاز العقلي في الإسناد، أي: في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، ويسمى: المجاز الحكمي، والإسناد المجازي، ولا يكون إلا في التراكيب.

ثانياً: علاقة المجاز العقلي:

للمجاز العقلي علاقات مختلفة، وللإيضاح سنقدم طائفة من العلاقات مع الأمثلة وبيان نوع العلاقة، وهي كما يأتي:

الأولى: السببية؛ كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى**﴾ [غافر:36-37]، فقد أسند البناء إلى هامان وزير فرعون؛ مع أن هامان لم يبن الصرح بنفسه، وإنما بناه عماله، ولما كان هامان سبباً في البناء أسند الفعل إليه، ففي إسناد بناء الصرح إلى الوزير مجاز عقلي، علاقته السببية، ومنه قولنا: (يفعل المال ما تعجز عنه القوة)؛ فالمال لا يفعل، وإنما الذي يفعل هو صاحبه، وهنا مجاز عقلي، علاقته السببية.

الثانية: الزمانية؛ كقولنا: (ضرب الدهر بينهم وفرق شملهم)؛ فأسند الضرب والتفريق إلى الدهر، مع أن الدهر في حقيقته لا يضرب ولا يفرق، فقد أسند إلى غير فاعله الحقيقي؛ لأن الذي يضرب ويفرق هو: الحوادث والمصائب التي حدثت في الدهر، فالمجاز هنا عقلي علاقته الزمانية.

الثالثة: المكانية؛ كقول الشاعر:

ملكنـــا فكـــان العفـــو منـــا ســـجية   فلمـــا ملكـــتم ســـال بالـــدم أبطـــح

فقد أسند سيلان الدم إلى الأبطح وهي المكان الذي سال فيه الدم، بمعنى: أسند الفعل إلى غير فاعله، وهنا مجاز عقلي؛ لأن الأبطح مكان لا يسيل، وإنما يسيل ما فيه، وهذا المجاز عقلي علاقته المكانية.

علم المعاني

مدخل إلى علم المعاني

تعريف علم المعاني:

هو: العلم الذي يبحث في كيفية مطابقة اللفظ لمقتضى الحال. أي: هو أصول وقواعد يُعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقاً لمقتضى الحال بحيث يكون وفق الغرض الذي سِيق له. وبعبارة أخرى: هو العلم الذي يبحث في الطرق التي يجب على الأديب أن ينتهجها لتكون وافية بمقصوده موضّحة لمعانيه، مظهرة لما يرمي إليه بحسب حال السامعين واختلاف طبقاتهم واتجاهاتهم ونزعاتهم ومقدار ثقافتهم وبحسب ما يتطلب الزمان والمكان ليُحقق لكلّ مقام مقالاً؛ فيعرف الأسباب التي تدعو إلى التّقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل والإيجاز حيناً والإطناب حيناً آخر.

واضع علم المعاني:

أول من بسط قواعده الإمام: عبد القاهر الجرجاني المتوفّى سنة: (471هـ)، فهو الذي هذّب مسائله، وأوضح قواعد، وقد وضع فيه العلماء قبله بعض المسائل، كالجاحظ، وأبي هلال العسكري، إلاّ أنهم لم يوفّقوا إلى مثل ما وُفّق إليه ذلك العالم الجليل.

فائدة علم المعاني:

1- الوقوف على أسرار البلاغة في منثور كلام العرب ومنظومه، كي يُحْتذَى حذوه، ويُفَرَّق بين جيّدِ الكلام ورديئه.

2- معرفة وجه إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ولطف الإيجاز، وما اشتمل عليه من

عذوبـة ألفاظـه وجزالـة كلمـاتهن فنقتنـع ببلاغتـه ونُـدرك السِّـر فـي فصاحته وإعجازه الخالد على مرّ الدُّهور.

3- يمدُّ الناشئ في الأدب بمعرفة الأساليب التي يختار منها ما يلائمه ويرسم له طرقاً حسنة لتحديد الأحوال والمواطن التي تقال فيها تلك الأساليب، فيُعينُه على تأدية الكلام مطابقاً لمقتضى الحال.

استمداد علم المعاني:

من القرآن الكريم، والحديث النبوي، وكلام العرب.

ما يبحث فيه علم المعاني:

سبق فيما تقدّم أن علم المعاني هو أصول وقواعد يُعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون بها مطابقاً لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق الغرض الذي سِيقَ له، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال تتأتى عن البحث في طريقتين طريقة الجملة بحد ذاتها، وطريق الأسلوب.

ومعنى ذلك أنّ هذا العلم يبحث في:

1- الجملة وكيفية تكوينها، من حيث أنواعها وأحوال أجزائها، وكيفية تقديم أو تأخير بعض الأجزاء على بعض، أو ذكر بعض الأجزاء وحذف بعضها الآخر، والدّواعي لذلك.

2- الأسلوب الذي يجب أن يُوجَّه للمخاطب، كأسلوب القصر وكالفصل، أو الوصل بين الجمل، وكالإيجاز أو الإطناب أو المساواة.

3- ما يختص بالجملة، فالجملة في كلام العرب إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج؛ فالأول الخبر، والثاني الإنشاء، ثم الخبر لا بد له من إسناد ومسند إليه ومسند.

نشأة علم المعاني

علم المعاني هو: أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: المعاني، البيان، البديع؛ إذ كانت البلاغة العربية في مراحلها الأولى وحدة شاملة لموضوعات هذه العلوم بلا تحديد، وظل الأمر كذلك حتى جاء عبد القاهر الجرجاني في (القرن الخامس الهجري: ٤٧١هـ)، ووضع نظرية علم المعاني في كتابه: (دلائل الإعجاز)، ونظرية علم البيان في كتابه: (أسرار البلاغة).

أما أساس علم البديع فقد وضعه قبل الجرجاني ابن المعتز، ثم انحصرت الجهود بعد الجرجاني على وضع وترتيب قواعد علوم البلاغة، وترتيب أبوابها واختصارها، وكان يصاحب هذا الاختصار أحياناً غموض وصعوبة، حيث يحتاج إلى شرح يوضح غموضه، وعليه انتشرت كتب الشروح مثل كتاب: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) للفخر الرازي (٦٠٦هـ) فقد اختصر فيه كتابي: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)، وكتاب (مفتاح العلوم) لأبي يوسف السكاكي، فقد قسمه إلى أربعة أقسام، كان القسم الثالث للكلام عن علمي المعاني والبيان.

وعرف السكاكي علم المعاني بقوله: "إنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره؛ ليحترز بالوقوف عليها عند الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره".

والتعريف كما نلحظ لا يدل بمعناه في سهولة ويسر، وإنما هو يعني طالبه عناءً شديداً حتى يصل إليه إن وصل؛ لذا نجد أيضاً من قام بشرح وتلخيص كتاب (المفتاح)، وكل هذه الكتب لا تخرج عن كونا ترديداً أو تكراراً لمادته، ومحاولات التقريب والتبسيط.

ولأننا لم نستطيع أن نتبنى مفهوم المعاني قبل السكاكي، على الرغم مما جاء به الزمخشري صاحب تفسير الكشاف يمكن القول: إن السكاكي أول من قسم البلاغة إلى معان وبيان ومحسنات وحدد موضوعاتها وأرسى قواعدها.

أما الخطيب القزويني المتوفى: (٧٣٩هـ) صاحب كتاب (الإيضاح)، فقد استقر على يديه مصطلح علم المعاني، وقد كان أوضح منهجاً من السكاكي، فعلم المعاني عنده هو: "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بما يطابق مقتضى الحال".

هدف دراسة علم المعاني:

وتنحصر في هدفين رئيسين هما:

- **هدف خاص:** ويتمثل في الاتجاه الديني الذي يرمي إلى معرفة إعجاز القرآن الكريم ومعرفة معجزة الرسول -ﷺ-، الذي أوتي جوامع الكلم وكان أفصح من نطق بالضاد.
- **هدف عام:** محاولة الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن الكريم، من كلام العرب شعراً ونثراً؛ لأن من لا علم له بأوجه البلاغة يعجز عن التمييز بين الفصيح والأفصح، والبليغ والأبلغ.

أثر علم المعاني في بلاغة الكلام

يظهر أثر علم المعاني في بلاغة الكلام من وجوه عدة:

الوجه الأول: يبين لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين، والمواطن التي يقال فيها، فمثلاً المخاطب الذي يلقى إليه خبر من الأخبار له ثلاث حالات، إما أن يكون خالي الذهن وحينئذ يلقى إليه الخبر مجرداً التأكيد وإما أن يلقي إليه الخبر مؤكد بمؤكد

واحد وإما أن يكون المخاطب على علم بالخبر منكر له وحينئذ يلقى إليه الخبر مؤكداً بأكثر من مؤكد تبعاً لدرجة إنكاره.

الوجه الثاني: يبين لنا أيضاً كيف يخاطب كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحضه من اللغة والأدب، فلا يجوز مثلاً أن يخاطب العامي بما ينبغي أن يخاطب به الأديب.

الوجه الثالث: يبين لنا علم المعاني وضع الكلام في موضعه المناسب له، ويتضح ذلك من تلك الرواية التي أوردها لنا صاحب كتاب (الأغاني).

قال: أحمد بن خلاد: "حدثني أبي قال: قلت لبشار: إنك لتجيء بالشيء الهجين، قال: وما ذاك؟ قلت: بينما تقول شعراً يثير النقع وتخلع به القلوب كقولك:

إذا ما غضبنا غضبة مضربةً   هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أغرنا سيداً من قبيلة   ذرى منبر صلى علينا وسلما

وتقول أيضاً:

ربابة ربة البيت   تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوت

فقال: بشار لكلٍ وجه وموضع.

الوجه الرابع: وإذا كانت مطابقة الكلام لمقتضى الحال تتمثل في وضع الكلام في موضعه الملائم له فإنها تتمثل أيضاً فيما يتصرف فيه القائل من إنجاز وإطناب؛ إذ لكل من الإنجاز والإطناب مقاماته التي يقتضيها حال السامع في الذكاء.

فالبلاغة تقتضي استعمال أسلوب الإيجاز مع الذكي اعتماداً على سرعة فهمه وقدرة استيعابه لما تحمله الألفاظ القليلة من المعاني الكثيرة، وكذلك الشأن بالنسبة لأسلوب الإطناب فبلاغته تستلزم الإسهاب بالشرح والإيضاح.

الوجه الخامس: يبين لنا أيضاً علم المعاني ما يستفاد من الكلام ضمناً بمعونة القرائن، فالكلام يفيد بأصل وضعه معنى نطلق عليه المعنى الحقيقي أو المعنى الأصلي، ولكنه قد يخرج عن معناه الأصلي الذي وضع له ليؤدي لنا معنى جديد يفهم من السياق في الجملة.

الخبر والإنشاء

ينقسم الكلام في اللغة العربية إلى قسمين هما:

*** الخبر.** *** الإنشاء**

أولاً: الخبر:

ويعرف بأنه: القول الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته، ويكون الصدق والكذب بمطابقته للواقع أو عدم مطابقته له دون النظر إلى نية القائل أو اعتقاده.

ما حكم الأخبار الواردة في القرآن الكريم؟

يصدق هذا التعريف على كل كلام يؤخذ من غير النظر إلى قائله، أما الأخبار التي وردت في كتاب الله وأحاديث الرسول الكريم -ﷺ- والحقائق العلمية والبديهيات التي لا يشك فيها، فلا يمكن أن تحتمل الكذب مع أنها أخبار عن شيء؛ لذلك تخرج من هذا التعريف، وأما غيرها من الأخبار فهي قابلة للتصديق والتكذيب؛ لأنها ينظر إليها لذاتها لا لذات القائلين.

أضرب الخبر (أنواع الخبر):

له ثلاثة أضرب، أي: أن المخاطب الذي يلقى إليه الخبر له ثلاث حالات:

الخبر الابتدائي:

وهو الخبر الذي يكون خالياً من المؤكدات؛ لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه كقوله تعالى: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [سورة الأنبياء:63]، وكقولنا: (ذهب زيد، وحضر محمد) لمن كان ذهنه خال من ذهاب زيد وحضور محمد.

وقول الشاعر المتنبي:

أنــا الــذي نظــر الأعمــى إلــى أدبــي وأســمعت كلمــاتي مــن بــه صــمم
أنــام مــلء جفــوني عــن شــواردها ويســهر الخلــق جرهــاً ويختصــم

ففي هذه الأمثلة ألقي الخبر إلى مخاطب خالي الذهن من حكمه؛ لذلك جاءت من غير توكيد، وهذا النوع من الخير يسمى ابتدائياً.

ملحوظة: المؤكدات هي: (أن، كأن، لكن، أما، قد، السين، القسم، نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، لن، الحروف الزائدة، حروف التنبيه).

الخبر الطلبي:

وهو: الخبر الذي يتردد المخاطب فيه ولا يعرف مدى صحته، فيستحسن تقويته بمؤكد، كقوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا**﴾ [سورة يوسف:8].

وقول الشاعر:

إن العيــون التــي فــي طرفهــا حــور قتلننــا ثــم لــم يحيــين قتلانــا

وقول الشريف الرضي:

قــد يبلــغ الرجــل الجبــان بمالــه مــا لــيس يبلغــه الشــجاع المعــدمُ

ففي هذه الأمثلة أكد الخبر بإحدى أدوات التوكيد، مثل: اللام في الآية الأولى، وإن وقد في البيتين السابقين، والخبر المؤكد بمؤكد واحد يسمى طلبياً.

الخبر الإنكاري:

وهو: الخبر الذي ينكره المخاطب إنكاراً يحتاج إلى أن يؤكد بأكثر من مؤكد، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيم**﴾ [سورة الصافات:38].

وقول المعري:

واني وإن كنت الأخير زمانه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

فالخبر هنا ورد بمؤكدين: إن ولام الابتداء، وكلما زاد الإنكار زاد التوكيد، فلمن ينكر نجاح محمد يقال له: (والله إن محمداً لناجح)، وهذا النوع من الخبر يسمى إنكارياً.

أغراض الخبر:

إن للخبر غرضان أصليان هما:

- **الأول: إفادة الخبر:**

ومعناه: إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو الكلام، وهذا هو الأصل في كل خبر؛ لأن فائدته تقديم المعرفة وأخبار الآخرين، كقوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ [سورة الفرقان:1]، وكقولك لصديقك: (عاد أخي من السفر)؛ لأن صديقك لا يعرف بعودة أخوك من سفره، لذا أنت أفدته بخبر جديد، ومنه قول الشاعر:

فلا الجود يفني المال والجد مقبلُ ولا البخل يبقي المال والجد مدبرُ

- **الثاني: لازم الفائدة:**

وهذا الغرض لا يقدم جديداً للمخاطب، وإنما يفيد أن المتكلم عالم بالحكم، من ذلك قولنا لصديق: (زاركم محمدٌ أمس)، فهو يعلم ذلك، ولكن الغرض من هذه الجملة إخباره أن المتحدث عارف بذلك.

ونحو قولنا لآخر: (دافعت البارحة عن نفسك جيداً) فأنت لا تفيده جديداً، وإنما غايتك أن تظهر له علماً بالخبر، أي: دفاعه عن نفسه مع علم المخاطب سلفاً بذلك، وكقول المتنبي لسيف الدولة:

وقفت وما في الموت شك لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

ففي البيتين غرض الخبر لازم الفائدة؛ لأن المخاطب يعلم بحكم الانتصار على أعدائه.

الأغراض التي يخرج إليها الخبر:

وهذان الغرضان السابقان هما الأصل في أغراض الخبر، غير أن البلاغيين أدركوا بأنه كثيراً ما يخرج على خلاف مقتضى الظاهر فيكون مجازاً، ومن الأغراض التي يخرج إليها الخبر:

1- **إظهار الضعف**: مثل قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ [سورة مريم:4]، ففي هذه الآية سيدنا زكريا - عليه السلام- يبين حاله ويظهر ضعفه؛ لذا فإن الغرض المستفاد من هذا الخبر هو: إظهار الضعف، وقول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقول أبي نواس:

دب في السقام سفلاً وعلواً وأراني أموت عضواً فعضوا

2- **الاسترحام**: ومنه قول إبراهيم بن المهدي مخاطباً المأمون:

أتيتُ جرماً شنيعاً وأنت للعفو أهل

فإن عفوت فمنٌّ وإن قتلت فعدل

وقول آخر:

فمـــــالي حيلـــــةٌ إلا رجـــــائي لعفــوك إن عفــوت وحســن ظنـــي

الخبر المستفاد من الأبيات هو: إظهار الاسترحام والاستعطاف.

3- **تحريك الهمة:** كقول الحق –سبحانه وتعالى-: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ [سورة يونس:26].

4- **إظهار التحسر والأسى:** كقول الشاعر أبي العتاهية يرثي ابنه:

بكيتـــك يـــا علـــي بـــدمع عينـــي فمـــا أغنـــى البكـــاء عليـــك شـــيئا

5- **إظهار الفخر والاعتزاز:** كقول عمر بن كلثوم:

إذا بلـــغ الفطـــام لنـــا صـــبياً تخـــر لـــه الجبـــابر ســـاجدينا

6- **إظهار الفرح والشماتة:** كقولك في موقف تكون قد انتصرت فيه أو أدخل إلى قلبك السرور (جاء الحق وزهق الباطل)، فالخبر المستفاد هو: إظهار الفرح بمقبل والشماتة بمدبر.

7- **الأمر:** ومنه قوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ**﴾ [سورة البقرة:228]، وقوله تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ**﴾ [سورة البقرة:233]، فإن السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك لا أنه الخبر.

8- **النهي:** ومنه قول الله –تبارك وتعالى-: ﴿**لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [سورة الواقعة:79].

9- **الوعد**: ومنه قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ**﴾ [سورة فصلت:53].

10- **الوعيد**: ومنه قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ [سورة الشعراء:227].

11- **الإنكار**: ومنه قولنا: (ما له عليَّ حق).

12- **التعظيم**: ومنه قولنا: (سبحان الله).

وتعرف هذه الأغراض من سياق الكلام ومقتضى الحال الذي تقال فيه.

مؤكدات الخبر:

إن لتأكيد الخبر أدوات كثيرة ومتعددة تدخل على الخبر فتؤكده، منها:

- **(إنَّ) المكسورة الهمزة، المشددة النون**، مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾ [سورة الإسراء:27].
- **(لام الابتداء)**، وفائدتها: توكيد الحكم، وتدخل على:

أ- المبتدأ: مثل: (لأنت خير من عرفت).

ب- على خبر إن، كقوله –سبحانه وتعالى–: ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء**﴾ [سورة إبراهيم:39].

ج- على المضارع الواقع خبر إنَّ، كقول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**﴾ [سورة النحل:124].

د- على شبة الجملة، كقوله –تبارك وتعالى–: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم**﴾ [سورة القلم:4].

- **(أما الشرطية) المفتوحة الهمزة، المشددة الميم**، وهي: حرف شرط وتفصيل وتوكيد، مثل قول الله تعالى: ﴿* **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً**﴾ [سورة البقرة:26].
- **(السين)** وهي: حرف يختص بالفعل المضارع ويخلصه للاستقبال، كقوله –سبحانه وتعالى–: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَب (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَب (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَب (3)**﴾ [سورة المسد:1-3].

- **(قد)** التي تستعمل للتحقيق، ومن ذلك قول الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُون (2)**﴾ [سورة المؤمنون:1-2].
- **(ضمير الشأن)**، وهو عادة ضمير رفع منفصل، ويؤتى به للفصل بين الخبر والصفة، وبين المبتدأ والخبر، مثل قولنا: (محمدُ هو النبي).
- **(القسم وأحرفه)**، وهي:

أ- الباء، وهي الأصل للدخول على كل مقسم به، مثل: (أقسم بالله)، و(أقسم به)، أي: تدخل على الاسم الظاهر وعلى الضمير.

ب- الواو: تختص بالدخول على الاسم الظاهر دون الضمير، مثل: (أقسم والله).

ج- التاء: تختص بالدخول على لفظ الجلالة فقط، مثل قوله تعالى: ﴿**وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِين**﴾ [سورة الأنبياء:57].

- **(نونا التوكيد)**، وهما: نون التوكيد الثقيلة، أي: المشددة، ونون التوكيد الخفيفة، أي: غير المشددة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى حكاية على لسان زوجة العزيز: ﴿**وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِين**﴾ [سورة يوسف:32].
- **(الحروف الزائدة)**، ومعنى أنها زائدة أي: إنها دخلت لتفيد التوكيد، وهي: (إن، أن المفتوحة، ما، لا، من الجارة، الباء الجارة، حروف التنبيه، مثل: إلا، أما).

خروج الخبر عن مقتضى الظاهر:

إن الخبر قد يخرج من الجملة الأصلية ذكرها إلى أمور أخرى تجعل الخطاب يأتي في صور تغاير الصور المألوفة في حالته الابتدائية والطلبية، وتلك الأغراض التي يخرج إليها هي:

أولاً: أن يترك خالي الذهن منزلة المتردد الشاك إذا تقدم في الكلام إلى ما يشير إلى حكم الخير ومضمونة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيم**﴾ [سورة الحج:1].

جاء الخطاب هنا مؤكداً بمؤكد واحد، مع أن المخاطب خالي الذهن، وذلك لأنه لما تقدم النداء في الآية إشارة إلى أن هناك حكماً سيصدر مضمون الخبر المستفاد من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾ [سورة الحج:1] هو الذي جعل المخاطب يعامل معاملة الشاك المتردد.

ثانياً: أن يجعل غير المنكر منزلة المنكر لظهور أمارات الإنكار عليه، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون**﴾ [سورة المؤمنون:15].

فالمخاطب في هذه الآية الكريمة لا ينكر حقيقة الموت، وأن الإنسان مهما طال عمره فإن مصيره الفناء، وكان ينبغي أن يلقى إليهم الخطاب مجرداً من التوكيد، ولكن لما ظهرت عليهم أمارات الإنكار؛ لتكالبهم على الدنيا، وعدم استعدادهم للآخرة، فكأنهم منكرون للموت، من هنا جاء الخطاب مؤكداً تنزيلاً لهم منزلة المنكرين.

ثالثاً: أن ينزل المنكر منزلة غير المنكر إن كان له شواهد وأدلة لو تأملها لعدل عن إنكاره، مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ [سورة البقرة:163].

فلو نظرنا إلى هذه الآية لوجدنا أنها جاءت مجردة من أي توكيد بأكثر من مؤكد، والسبب في ذلك: أن بين أيدي المنكرين الوحدانية الله من الأدلة الساطعة والشواهد المقنعة ما لو تدبروها لزال إنكارهم؛ لذا لم يكترث الخالق سبحانه بإنكارهم عند توجيه الخطاب إليهم، وإنزال هؤلاء المنكرين منزلة غير المنكرين؛ لوجود الدلائل التي لو تأملها المنكر لكف عن إنكاره.

ثانياً: الإنشاء

الإنشاء: كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه.

أقسام الإنشاء:

ينقسم الإنشاء إلى قسمين:

أ- الإنشاء الطلبي. **ب- الإنشاء غير الطلبي.**

أولاً: الإنشاء الطلبي:

تعريفه:

هو: ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، أو هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه.

أساليب الإنشاء الطلبي (أنواعه):

إن أنواع الإنشاء الطلبي أربعة هي: الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء، وسنتكلم عن كل واحد منها بالتفصيل.

أولاً: الأمر:

وهو: طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام.

ويقصد بالاستعلاء: أن ينظر من يقوم بالأمر لنفسه على أنه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه، سواء كان أعلى منزلة في الواقع أم لا.

ويهتم البلاغيون بهذا النوع؛ لما فيه من تفنن في القول؛ لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية.

صيغ الأمر:

للأمر صيغ منها:

أ- **فعل الأمر**، كقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِين**﴾ [سورة البقرة:43].

ب- **المضارع المقرون بلام الأمر**، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ**﴾ [سورة البقرة:282]، وقوله تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْت**﴾ [سورة قريش:3].

ج- **اسم فعل الأمر**، مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [سورة المائدة:105]، بمعنى: الزموا أنفسكم.

د- **المصدر النائب عن فعل الأمر**، مثل قوله تعالى: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾ [سورة البقرة:83]، أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً.

خروج الأمر عن معناه الأصلي:

ما هو المعنى الأصلي للأمر؟ هو: طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وقد يخرج الأمر عن المعنى الأصلي إلى معان أُخر تفهم من سياق الكلام، ومن هذه الأغراض:

1- **الدعاء**، وهو: الطلب على سبيل التضرع، كقوله تعالى: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ**﴾ [سورة نوح:28]، ومنه قول الشاعر المتنبي:

أزل حسد الحساد عني بكبتهم — فأنت الذي صيرتهم لي حسّدا

2- **الالتماس**، وهو: الطلب الصادر عن المتساوين قدراً ومنزلة على سبيل التلطف، كقول الشاعر ابن زيد يخاطب ولّادة:

دومي على العهد ما دمنا محافظة — فالحر من دان إنصافاً كما دينا

3- **التمني**، وهو: الطلب الذي لا يرجى وقوعه، كقول عنترة:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي — وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

وقول آخر:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة — ويا نفس جدِّي إن دهرك هازل

4- **النصح والإرشاد**، وهو: الطلب الذي لا إلزام فيه، وإنما النصيحة الخالصة، كقول الشاعر في مدح سيف الدولة:

كذا فليس منا طلب الأعادي — ومثل سراك فليكن الطلاب

5- **التخيير**، وهو: الطلب بأن يختار المخاطب بين أمرين أو أكثر، كقول بشار:

فعـش واحـداً أو صـل أخـاك فإنـه مقـــارف ذنبـــاً مـــرة ومجانبـــه

6- **الإباحة**، كقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿**وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ [سورة البقرة:187].

7- **التعجيز**، وهو: الطلب بما لا يقدر عليه المخاطب، كقوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ**﴾ [سورة الرحمن:33].

8- **التهذيب**، كقول تعالى: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [سورة فصلت:40].

ثانياً: النهي:

ومن أساليب الإنشاء الطلبي النهي، وهو: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام.

والنهي يتفق مع الأمر في:

1- إن كل واحد منهما لا بد فيه من اعتبار الاستعلاء.
2- أنهما يتعلقان بالغير، فلا يمكن أن يكون الإنسان أمراً لنفسه أو ناهياً له.
3- إنهما لا بد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما.

ويختلف الأمر والنهي في:

1- أن كل منهما مختص بصفة تختلف عن الآخر.
2- أن الأمر دال على الطلب، والنهي دال على المنع.
3- أن الأمر لا بد فيه من إرادة مأموره، والنهي لا بد فيه من كراهية منهيه.

صيغة النهي:

للنهي صيغة واحدة هي: المضارع المقرون بـ (لا) الناهية الجازمة، كقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ [سورة الحجرات:12].

خروج النهي عن معناه الأصلي:

ما هي صيغة النهي الأصلية؟ هي: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، لكنها قد تخرج عن هذا المعنى إلى معان مجازية عدة منها:

1- **الدعاء**، ويكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى، كقول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿**رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا**

حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [سورة البقرة:286].

2- **الالتماس**، ويكون صادراً من أخ إلى أخيه، أو من صديق إلى صديقه، كقوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى: **﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾** [سورة طه:94].

3- **التمني**، ويكون فيه النهي موجهاً إلى ما لا يعقل، كقول الخنساء:

أعينـــي جـــوداً ولا تجمـــدا ألا تبكيـــان لصـــخر النـــدى

4- **النصح**، كقوله تعالى: **﴿وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ﴾** [سورة البقرة:282].

5- **التوبيخ**، كقول الشاعر:

لا تنــه عــن خلــق وتــأتي مثلــه عـــار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم

6- **التحقير**، كقول الشاعر:

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا واقعـد فإنـك أنـت الطـاعم الكاسـي

7- **التيئيس**، كقول الله –سبحانه وتعالى–: **﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** [سورة التوبة:66].

8- **بيان العاقبة**، كقول الحق تعالى: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾** [سورة إبراهيم:42]، بمعنى: أن عاقبة الظلم العذاب لا الغفلة.

ثالثاً: الاستفهام:

ومن أساليب الإنشاء الطلبي الاستفهام، وهو: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل السؤال.

وللاستفهام أدوات كثيرة، وهي نوعان:

- **حرفان، وهما: (الهمزة وهل).**

وتستعمل الهمزة لطلب التصديق، وهو: إدراك النسبة، أي: تعينها، مثل: (أقام محمد؟)، وتكون الإجابة: (نعم أو لا). وتستعمل أيضاً للتصدير، وهو: إدراك الفرد، أي: تعيينه وتحديده، كقولنا: (أقام محمد أم قعد؟).

وأما هل فلا يطلب بها غير التصديق: (هل قام محمد؟)، وتكون الإجابة: (نعم أو لا).

- **أسماء، وهي: (ما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأني، ومتى، وأيان).**

ولا يطلب بها إلا التصور.

خروج الاستفهام عن معناه الأصلي:

وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي، وهو: طلب الشيء المجهول إلى معانٍ أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال. ومن تلك المعاني التي يخرج إليها:

1- **النفي**، وذلك عندما يجيء لفظ الاستفهام للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهول، كقول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ [سورة البقرة:255]، وقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ**﴾ [سورة الروم:29]. فظاهر الآيتين: الاستفهام، ولكن المعنى النفي، فلا

يستطيع أحد هداية أحد إذا أضله الله، والأخرى: لا يستطيع أحد أن يشفع عند الله إلا بإذنه.

2- **التعجب**، وذلك حين يأتي الكلام على صيغة الاستفهام، ولكنه يحمل معنى التعجب عن الشيء، وإن كان خارجاً عن صيغ التعجب المشهورة كقوله تعالى: ﴿**مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ**﴾ [سورة النمل:20]، وقوله تعالى: ﴿**مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ**﴾ [سورة الفرقان:7].

3- **التمني**، وذلك عندما يكون السؤال موجهاً إلى من لا يعقل، وهذا أمر لا يستفاد من الجملة الاستفهامية فقط، بل يؤخذ من السياق عامة، كقوله تعالى: ﴿**فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا**﴾ [سورة الأعراف:53].

4- **التقرير**، وهو: حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه؛ لغرض من الأغراض، كقوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [سورة الشرح:1]، وقول الله على لسان الكفار وهم يخاطبون إبراهيم –عليه السلام–: ﴿**أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾ [سورة الأنبياء:62]، ويتوقف هذا على أن الأمر معروف بين السائل والمسئول.

5- **التعظيم**، وذلك بالخروج بالاستفهام عن معناه الأصلي، واستخدامه للدلالة على ما يتحلى به المسئول عنه من صفات حميدة، مثل: الشجاعة والكرم والسيادة ونحو ذلك، كقول الشاعر العرجي:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر؟

وكقول طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني ... دعيت فلم أكسل ولم أتبلد

6- **التحقير**، وذلك عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضآلة المسئول عنه، وصغر شأنه، مع معرفة المتكلم أو السائل به، كقول الله تعالى على لسان الكفار: ﴿**أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً**﴾ [سورة الفرقان:41]، وقول الشاعر:

فـدع الوعيـد فمـا وعيـدك ضـائري   أطنـين أجنحـة الـذباب يضـير؟

7- **الاستبطاء:**

وهو: عد الشيء بطيئاً في زمن انتظاره، وقد يكون محبوباً منتظراً، ولهذا يخرج الاستفهام فيه عن معناه الحقيقي للدلالة على بعد زمن الإجابة عن بعد زمن السؤال، وهذا البعد يستلزم الاستبطاء، كقول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ**﴾ [سورة البقرة:214].

وهذه بعض الأغراض التي يخرج إليها الاستفهام، وهي كثيرة، ولكن الذوق السليم وقرائن الأحوال تشير إلى الغرض وتحدده.

رابعاً: النداء:

هو: طلب المنادى بأحد حروف النداء[1] التي ينوب كل حرف منها مناب الفعل "أدعوا"[2] لفظاً، كقوله تعالى: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)**﴾ [مريم: 7]، أو تقديراً، كما في قوله تعالى: ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ [يوسف: 29]، وقال تعالى: ﴿**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)**﴾ [الرحمن: 31]، وقال تعالى: ﴿**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ**﴾ [الدخان: 18]، بتقدير: "يا" قبل: "يوسف"، و"أَيُّها" و"عباد"[3].

وحروف النداء أو أدواته ثمان هي: "الهمزة"، و"أي" مقصورتين وممدودتين، فتقول: "أ" هشام، "أي" هشام"، "آ" هشام، "أي" هشام، فهذه أربع، و"يا"، و"أيا"، و"هيا"، و"وا"؛ وهذه أربع أخرى.

وهذه الأدوات في الاستعمال نوعان:

1- الهمزة، وأي: لنداء القريب.

2- والأدوات الست الأخرى: لنداء البعيد.

---

(1) أي: هو طلبُ المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب الفعل" أنادي".

(2) فالنحويُون يرون في حرف النداء والمنادى بعده جمله مقدّرة بالفعلية، فقولك: يا زيد بمنزلة قولك: أدعوا زيداً، وهو من قبيل الإنشاء الوارد بصيغة الخبر، كما نص السيوطي في الهمع.

(3) وذلك يعني أنه يجوز حذف "يا" خَاصَّةُ، سواء أكان المنادي مفرداً أم جارياً مجري المفرد أم مضافاً، كما اتضح من الأمثلة، واعلم أن اسم الله تعالى، "لفظ الجلالة" يختص نداؤه بـ "يا"، ويمتنع فيه حذفها إذا لم تُذكر في آخر الميم المشددة عوضاً عن حرف النداء، فيجب أن يقال: يا الله، بإثبات الحرف، إلاّ إذا قلت: اللهم بالتعويض، فإنك تحذف حرف النداء، لئلا يُجمع بين العوض والمعوّض (خزانة الأدب للبغدادي 289/1).

فمن أمثلة استعمال "الهمزة" و"أي" لنداء القريب المسافة جرياً على أصل الوضع:

- أخالدُ، لا ترفع صوتك حتى لا يسمع حديثنا أحد.
- أي بُنيَّ، أعد عَلَيّ ما سمعت منِّي.

أيْ صَـــدِيقِي إِنِّـــي قَصَـــدْتُكَ لَمَّـــا لَـمْ أَجِـدْ فـي الْحَيَـاةِ غَيْـرَكَ شَـهْماً

فسياق الكلام في هذه الأمثلة يدل على قرب المنادى، وقد استُعملت "الهمزة" و"أي" في نداء القريب جرياً على الأصل.

وقد يُنزِّلُ البعيدُ منزلة القريب، لغرض بلاغي فيُنادى بالهمزة وأي تنبيهاً على أنه حاضر في الذهن المتكلِّمِ صار كالحاضر معه لا يغيب عن قلبه، كأنه ماثلٌ أمام عينه، ومن أمثلة ذلك:

أَسُـــكَّان نَعْمَـــانِ الأراكِ تَيقَّنُـــوا بِـــأَنَّكُمُ فـــي رُبْـــعِ قَلْبِـــي سُـــكَّانُ[1]

فالأداة هنا "الهمزة" الموضوعة في الأصل للقريب، قد استعملت في نداء البعيد[2] على خلاف الأصل، والسبب هنا أن المتكلِّمِ أراد أن يُبَيِّن أن المنادى على الرغم من بعده في المكان، قريب من قبله، مُسْتَحْضَر في ذهنه لا يغيب عن باله، فكأنه حاضر معه في مكان واحد، وهذه لطيفة بلاغية تُسَوِّغ استعمال "الهمزة" و"أي" في نداء البعيد. وقول القائل:

أيْ بِـلاَدي فـي القلـب مَثْـواك مَهْمَـا طَـاَلَ مَنْفَـايَ عَـنْ ثَـرَاكِ الْحَبيـبِ

كما قد يعكس فيُنزِّل القريب منزلة البعيد فيُنادى بإحدى أدواته أي: بغير الهمزة

(1) نعمان الأراك: موضع في بلاد العرب، والربع: المنزل.

(2) بعد الْمُنادى هنا ظاهر؛ لأن المتكلِّم يُنادى سكان موضع ببلاد العرب، وهم بعيدون عنه.

وأي، للدلالة على ما يلي:

1- للدلالة على أن المنادى رفيع القدر عظيم الشأن، فَيُجْعَل بُعدُ المنزلة كأنه بُعد في المكان كقولك: "أيا مولاي" وأنت معه للإشارة إلى عُلُوِّ مرتبته وارتفاع شأنه، وكقول أبي نواس:

يـــا ربّ إن عظمـــت ذنـــوبي كثـــرةً فلقـــد عَلمـــتُ بـــأَنَّ عفـــوك أعْظَـــمُ

فأداة النداء هنا هي "يا" الموضوعة أصلاً للبعد وقد استعملت في نداء القريب[1] على خلاف الأصل، إشارة على علوّ مرتبه المنادى وارتفاع شأنه فكأَنَّ بُعد درجته في العظم بعدٌ في المسافة، ولذلك أختار المتكلم في ندائه الحرف الموضوع لنداء البعيد ليشير إلى هذا الشأن الرفيع ومن ذلك:

أَيَـــا رَبِّ قَـــدْ أَحســـنتَ عـــوداً وبَـــدْأَةً إلَـــيَّ فلـــم يـــنهضْ بإحســـانك الشُـــكْرُ

2- للإشارة إلى أن المنادى وضيع المنزلة منحطّ الدرجة: ومن أمثلة تنزيل القريب منزلة البعيد لانحطاط منزلته: قول القائل:

أيـــا هـــذا أتطمـــع فـــي المعـــالي ومـــا يحظـــى بهـــا إلاَّ الرِّجـــال؟

فالأداة هنا "أيا" الموضوعة أصلاً للبعيد، وقد نودي بها القريب[2] على خلاف الأصل، إشارة إلى أن المنادى وضيعُ الشأن فينظر المتكلم، فكأن بُعْد درجته في الانحطاط بعده في المسافة.

3- للإشعار بأن السّامع غافلٌ لاهٍ شارد الذِّهن كأنه غير حاضر في مجلسك. ومن أمثلة تنزيل القريب منزلة البعيد لغفلته، قول الشاعر:

---

(1) إنما كان المنادى هنا قريباً لأنه الله سبحانه وتعالى، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

(2) والدليل على قرب الْمُنادى هو أن استعمال اسم الإشارة "هذا" يدل على أن المنادى قريب.

يــا أَيُّهــا القَلْــبُ هــل تَنْهَــاكَ موْعِظَــةً   أو يُحْــدِثَنْ لَــك طُــوْلُ الــدَّهْرِ نِسْــيَانَا

فأداة النداء "يا" الموضوعة في الأصل للبعيد قد استعملت في نداء القريب على خلال الأصل إشعاراً بأن المخاطب غافل ساه فكأنه غير موجود لأن الشاعر يخاطب نفسه الغارقة في بحار الآمال، وليس هناك أقرب إلى الإنسان من نفسه بل هي هو.

خروج ألفاظ النداء عن معناها الأصلي إلى معان أخرى:

قد تخرج ألفاظ النداء عن استعمالها الحقيقي وهو طلب الإقبال على الداعي إلى معان أخرى لأغراض بلاغية تُسْتفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، ومن أهم هذه المعاني:

1- **الإغراء:** قد يخرج النداء عن معناه الأصلي إلى الإغراء كقولك للجندي المتردد في الدفاع: "يا شجاع تقدّم"، فالغرض من النّداء هنا إغراء الْمُخاطَبْ على الإقدام ومنازلة العدو، وكقولك لمن أقبل يتظلَّم: "يا مظلوم تكلَّم" قصداً إلى إغرائه وحثِّه على الزيادة.
2- **التحسُّر والتوَجُّع:** ومن النداء الذي خرج عن معناه الأصلي إلى التحسر والتوجع قوله -تبارك وتعالى- حكاية عن الكافر يوم القيامة: ﴿**يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)**﴾ [النبأ: 40]، وقول امرأة عربية تتحسر على ابنها:

دَعْوتُــكَ يَــا بُنَــيَّ فلــم تُجبْنِــي   فَــرُدَّتْ دَعْــوَتِي يَأْسـاً عَلَيَّــا

فالغرض هنا من النداء التحسّر على فقد الولد وانقطاع الرجاء من حياته.

3- **التحيُّر والتضجُّر:** نحو قول الشاعر:

يـا ليـل قـد طلـتَ فهـل مـات السَّحر   أم اسـتحالت شمسـه إلـى القمـر

4- **الزجر والملامة:** ومن النداء الذي خرج عن معناه الأصلي إلى الزجر قول الشاعر:

أَفُـــؤَادِي مَتَـــــى الْمَتَـــــابُ أَلَمَّـــــا   تصْـحُ والشَّـيْبُ فَـوْقَ رَأسِـي أَلَمَّـا[1]

5- الاستغاثة: نحو: يالله[2]، أي: يا الله ارحمنا، ونحو:

يـــا للرِّجـــال ذوي الألبـــاب مـــن نَفَـــر   لا يبـرح السـفه المـردي لهـم دينـــا[3]

6- **التعجب:** نحو: يا لجمال الربيع! ونحو: يا للعشب ويا للماء[4]! يقال ذلك عند مشاهدة كثرة العشب والماء، ونحو قول الشاعر:

يـــــا لــــكِ مــــن قُبَّـــرة بمتَعْمَـــــرِ   خـــلاً لـــكِ الجـــوُّ فَبِيضـــي واصـــفري!

7- **الندبة:** نحو: قوله تعالى: ﴿**يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: 56]، ونحو: واكبدي! ويا ولداه! وكقول أبي العلاء:

فـوا عجَبـا كـمْ يـدَّعي الفضـلَ نـاقصٌ   وَوَا أسـفا كـم يُظهـر الـنَّقْصَ فاضِـلُ

8- **الاختصاص[5]:** نحو: "أنا أكْرِمُ الضيفَ أيُّها الرَّجُلُ"، "أنا الفقيرُ المسكينُ أيُّها الرجل"، ونحو: "بعلمكم أيُّها الشباب يعتزُّ الوطن وينهض".

---

(1) أَلَمَّ الثانية بمعنى: نزل.

(2) اللام في الاستغاثة زائدة، أو أصلية متعلقة بفعل تقديره: ألتجئ، أو بحر النداء في مذهب بن جني، وذهب الكوفيون إلى أنها بقية "آل" فإذا قلت يا لزيد، كان أصلها يا آل زيد.

(3) المردي: المهلك، والدين: العادة.

(4) قال النحويون في لام التعجب ما قالوه في لام الاستغاثة (الصبان 166/3).

(5) بيان ذلك أن النداء تخصيص المنادى بطلب إقباله عليك فَجُرِّدِ عن طلب الإقبال واستعمل في تخصيص مدلوله من بين أمثاله بما نسب إليه منها.

ثانياً: الإنشاء غير الطلبي:

تعريفه:

وهو: ما لا يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، أو هو: ما يقترن فيه الوجودان، بمعنى: أن يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه، أي: في الوقت الذي يتم التلفظ به.

صيغ الإنشاء غير الطلبي:

للإنشاء غير الطلبي صيغ كثيرة ومتعددة منها:

أ- **صيغ المدح والذم، ومنها: (نعم وبئس)**، من ذلك قول الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿**وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة النحل:30]، وقوله تعالى: ﴿**يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ**﴾ [سورة الحج:13].

ومن صيغ المدح والذم: حبذا، ولا حبذا، كقول الشاعر:

ألا حبّذا أهلُ المَلا غير أنّه إذا ذُكِرتْ "ميٌّ" فلا حبّذا هيا

ب- **التعجب**، وله صيغتان قياسيتان، هما:

صيغة: (ما أفعله)، كقول الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿**قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾ [سورة عبس:17].

وصيغة: (أفعل به)، كقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا**﴾ [سورة مريم:38].

ج- **القسم**، ويكون بالواو والتاء والياء، مثل قوله تعالى: ﴿**وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)**﴾ [سورة الضحى:1-2]، و(أقسم بالله إني بريء).

د- **الرجاء**، وهو: طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع، والحرف الموضوع له: (لعل)، كقول الشاعر:

لعـل انحـدار الـدمع يعقـب راحـة   مـن الوجـد أو يشـفي نجـي البلابـل

ومن الأفعال التي تفيد الرجاء: عسى، كقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿**فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**﴾ [سورة المائدة:52].

وكذلك من الأفعال: (حرى واخلولق)، وتسمى أفعال الرجاء.

هـ- **صيغ العقود**: ما المقصود بصيغ العقود هنا؟ هي: التي يتم فيها التعامل، مثل: بعت، اشتريت، وهبت، وقبلت. وهذه أساليب خبر؛ لكنها لا يراد بها الإخبار؛ لأنها لا تحتمل الصدق والكذب، ولذلك لم توضع مع الخبر، ولا يهتم البلاغيون بهذه الأساليب.

أما الإنشاء الذي يعنون به فهو: الطلبي؛ لما فيه من تفنن في القول؛ لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام كما مر بنا سابقاً.

أحوال الجملة

تعريف الجملة:

هي: كلمات تأتلف لتدل على معنى، أو هي كما قال النحاة: "اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها".

ولا تكون الجملة تامة إلا إذا استوفت ركنين، هما: المسند والمسند إليه، وإذا حذف منها أحد هذين الركنين لجأ إلى التقدير؛ ليستقيم الكلام، أو تستقيم القاعدة التي بها يقيسون الكلام.

ركنا الجملة:

تتكون الجملة من:

1- **المسند إليه**، وهو: المحكوم عليه، أو المخبر عنه.

كقول الشاعر:

طـوى الجزيـرة حتـى جـاءني خبـر فزعـت فيـه بآمـالي إلـى الكـذب

فقد أسند طي الجزيرة إلى الخبر، فالخبر مسند إليه، والجزيرة مسند.

ومواضع المسند إليه، هي: الفاعل، ونائبه، والمبتدأ، وما أصله المبتدأ: (اسم كان وأخواتها، واسم إن وأخواتها، والمفعول الأول لظن وأخواتها، والمفعول الثاني لأرى وأخواتها).

2- **المسند**، وهو: المحكوم به، أو المخبر به.

ففي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوص**﴾ [سورة الصف:4]؛ إذ أسند المحبة إلى الله تعالى فهي مسند، ولفظ الجلالة مسند إليه.

ومواضع المسند، هي: الفعل التام، واسم الفعل، وخبر المبتدأ، والمبتدأ المكتفي بمرفوعه، وما أصله خبر المبتدأ: (خبر كان وأخواتها، وخبر إن وأخواتها، والمفعول الثاني لظن وأخواتها، والمفعول الثالث لأرى وأخواتها، والمصدر النائب عن فعل الأمر).

ويقسم النحاة الجملة إلى: اسمية وفعلية وظرفية، والعمدة في التمييز بين هذه الأنواع هو: تصدر المسند أو المسند إليه، أما الحروف التي تتقدم عليها فلا عبرة بها.

والخلاصة:

- أن الجملة الاسمية تدل على الاختصاص والتحقق والثبوت والتأكيد.
- في حين تدل الجملة الفعلية على التجدد؛ لأن الفعل مرتبط بالزمان وتحولاته.
- والجملة الظرفية يؤتى بها إذا كان المراد اختصار الجملة الفعلية، مثل: (محمد في الدار) بدلاً من استقر أو حصل فيها.

موضوعات دراسة المسند والمسند إليه

وتتصل بدارسة المسند والمسند إليه ومتعلقاتهما موضوعات كثيرة، غير أن الاقتصار على أهمها وعلى ما له علاقة بالأساليب المتنوعة أقرب إلى الدراسات البلاغية، ولذلك سيكون الوقوف على: التعريف والتنكير، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والقصر.

التعريف والتنكير:

المعرفة هي: ما دل على شيء بعينه.

والنكرة هي: ما دل على شيء لا بعينه.

وأقسام المعرفة الخمسة هي: الضمير، والعلم، واسم الإشارة، والاسم الموصول، والمعرف بالألف واللام، والمضاف إلى أحد هذه المعارف.

وتتفاوت النكرات أيضاً في مراتب التنكير، وكلما ازدادت النكرة عموماً زادت إبهاماً في الوضع.

والتعريف مختلف، ويكون بوسائل هي:

- **الأول: الإضمار، سواء كانت للمتكلم والمخاطب والجمع والغائب.**

ويدخل التعريف على المسند إليه؛ لأن الأصل فيه أن يكون معرفة؛ لأنه المحكوم عليه، والحكم على المجهول لا يفيد؛ لذلك فإنه يعرف لتكون الفائدة أتم، ونسوق هنا الشواهد على التعريف من خلال الضمائر البارزة، مثل قول الشاعر:

ونحـــن التـــاركون لمـــا ســـخطنا　　　ونحـــن الآخـــذون لمـــا رضـــينا

فقد كان الضمير هنا في مقام التكلم.

أو كان المقام مقام خطاب مثل:

وأنــت الــذي أخلفتنـــي مــا وعــدتني   وأشــمت بـــي مــن كـــان فيـك يلــوم

أو كان المقام مقام الغيبة؛ لكون المسند إليه مذكوراً، أو في حكم المذكور، مثل:

هــو البحــر مــن أي النــواحي أتيتــه   فلجتـــه المعـــروف والبـــر ســـاحله

- **الثاني: العلمية، وذلك لإحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به.**

كقوله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ [سورة الإخلاص:1].

أو لتعظيمه أو أهانته كما في الألقاب والكنى المحمودة وغير المحمودة.

- **الثالث: الموصولية، ويكون ذلك لأسباب منها:**

عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة، مثل: (الذي كان معنا أمس رجل عالم).

أو لاستهجان التصريح بالاسم أو زيادة التقرير، مثل كقوله تعالى: ﴿**وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾ [سورة يوسف:23]، فإن الاسم الموصول هنا مسوق لتنزيه يوسف –عليه السلام– عن الفحشاء، والمذكور أدل عليه.

أو التفخيم، أو تنبيه المخاطب عن غلطة، كقول الشاعر:

إن الـــــذين تـــــرونهم إخـــــوانكم   يُشــفي غليــل صــدورهم أن تصــرعوا

- **الرابع: أسماء الإشارة، ويؤتي بالمسند إليه اسم إشارة لأحد أمور، منها:**

أن يقصد تمييز المسند إليه لإحضاره في زمن السامع حساً، كقول الشاعر:

أولئـك قـوم إن بنـوا أحسـنوا البنـاء   وان عاهـدوا أوفـوا وإن عقـدوا شـدوا

أو لقصد أن السامع غني لا يميز الشيء عنده إلا بالحس، كقول الفرزدق:

أولئـــك آبـــائي فجئنـــي بمـــثلهم   إذا جمعتنـــا يـــا جريـــر المجـــامع

- **الخامس: التعريف باللام، وذلك لأمور منها:**

أن يشار به إلى معهود بينك وبين مخاطبك، كقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى**﴾ [سورة آل عمران:36]، أي: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها.

أو يراد به نفس الحقيقة مثل: (الماء مبدأ كل حي).

- **السادس: التعريف بالإضافة، ويكون لأسباب منها:**

أن لا يكون لإحضار المسند إليه في الذهن طريق أخصر من الإضافة، وينبغي أن يقيد بما إذا كان المقام مقام اختصار، أو تغني إضافته عن التفصيل المتعذر، أو المرجوع لجهة، كقول الشاعر:

قـــومي هـــم قتلـــوا أميـــم أخـــي   فـــإذا رميـــت يصـــيبني ســـهمي

أو لتعظيم شأن المضاف أو المضاف إليه، فمن تعظيم شأن المضاف قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [سورة الحجر:42]، ففيه تعظيم لشأن العباد بأنهم عباد الله، ومن تعظيم شأن المضاف إليه قولك: (كتابي من أجل الكتب)، ففيه تعظيم لشأن المضاف إليه بأنه صاحب كتاب عظيم.

وتعريف المسند؛ لإفادة السامع إما حكماً على أمر معلوم له بطريق من طرق التعريف بأمر آخر معلوم له كذلك، وإما لازم حكم بين أمرين كذلك، بمعنى: أن يكون للشيء صفات من صفات التعريف مع علم السامع بإحداهما دون الأخرى[1].

أما تنكير المسند إليه، فله دلالة غير ما تراه في التعريف؛ فالتنكر شيء لفائدة يقصر عن فائدتها العلم، وينكر المسند إليه لأغراض منها:

- **الإفراد**، كقول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿**وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى**﴾ [سورة القصص:20]، أي: فرد من أشخاص الرجال.
- **التوعية**، كقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ [سورة البقرة:7]، أي: نوع من الأغطية.
- **التعظيم**، كقوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ [سورة البقرة:179]، أي: حياة عظيمة.
- **وقد يكون لقصد النكارة والجهل**، كقوله تعالى: ﴿**أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا**﴾ [سورة يوسف:9]، أي: منكورة مجهولة.
- **التكثير**، مثل: (إن له لمالاً)، بمعنى: إنه ذو مالٍ كثير.

أما حكم المسند في التنكير، فهو ينكر لأغراض، منها:

- إفادة عدم الحصر والعهد، وكذا إرادة التفخيم والتعظيم، كقول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة البقرة:2]، فالتنكير للدلالة على فخامة هداية الكتاب.
- وكذلك ينكر المسند لإرادة التحقير[2].

---

(1) للمزيد ينظر: (الإيضاح) للقزويني.

(2) يراجع: (مفتاح العلوم)، و(شرح التخليص).

الذكر والحذف:

أولاً: الذكر، إن المسند إليه والمسند وغيرهما تذكر في العبارة لسبب من الأسباب، ومن أغراض ذكر المسند إليه: أنه الأصل، ولا مقتضى للحذف، فإذا حذف ذهب المعنى.

- ضعف التعويل على القرينة، وذلك إذا ذكر المسند إليه في الكلام وطال عهد السامع به، أو ذكر كلام في شأن غيره مما يوقع في اللبس إن لم يذكره.
- يذكر اعتماداً على قدرات السامع حتى أنه لا يفهم إلا بالتصريح.
- زيادة الإيضاح والتقرير كقوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [سورة البقرة:5]، ففي تكرير اسم الإشارة زيادة في إيضاح وتقرير لتميزهم على غيرهم.
- إظهار التعظيم بالذكر، وكذا يذكر لغرض الإهانة مثل: اللعين إبليس.
- التبرك بذكر الاسم، والاستلذاذ بذكره.
- بسط الكلام؛ إذ يقصد الإصغاء، كقوله تعالى: ﴿**هِيَ عَصَايَ**﴾ [سورة طه:18]، وزاد على الجواب بقوله: ﴿**أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا**﴾ [سورة طه:18].

أما ذكر المسند، فيذكر للأسباب التي يذكر فيها المسند إليه، أو ليتعين كونه اسماً فيستفاد منه الثبوت، أو كونه فعلاً فيستفاد منه التجدد، أو كونه ظرفاً احتمال الثبوت والتجدد.

ثانياً: الحذف، فهو في اللغة: الإسقاط.

واصطلاحاً: إسقاط الكلام لدليل، ولا يجوز حذف المسند إليه إلا إذا دل عليه دليل من اللفظ أو الحال.

س/ متى يجوز حذف المسند إليه؟

ج/ يترجح حذفه إذا كان مبتدأ لدواع وأسباب منها:

- الاحتراز عن العبث بترك ما لا ضرورة لذكره، وذلك يكسب الكلام قوة وجمالاً، ويكثر هذا الحذف في جواب الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَه (10) نَارٌ حَامِيَة (11)**﴾ [سورة القارعة:10-11]، والتقدير: هي نار حامية.
- بعد الفاء المقترنة بالجمل الاسمية الواقعة جواباً للشرط، كقوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا**﴾ [سورة فصلت:46]، أي: فعمله لنفسه وإساءته عليها.
- بعد القول، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [سورة الفرقان:5]، أي: قالوا القرآن أساطير.
- كما يحذف المسند إليه أيضاً لضيق المقام عن إطالة الكلام، وذلك للتوجع، كقول الشاعر:

قال لي: كيف أنت؟ قلت: عليل ... سهر دائم وحزن طويل

أي: أنا عليل.

- وللخوف من فوات الفرصة، مثل: (حريق)، أي: هذا حريق.

- تكثير الفائدة، كقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [سورة يوسف:18]، أي: فأمري صبر جميل، أو فصبري صبر جميل.
- ويحذف المسند إليه إن كان الفاعل معلوماً، كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء:28]، أي: خلق الله الإنسان ضعيفاً.
- ويحذف للجهل به أو للتحقير، أو الخوف منه أو عليه، وغير ذلك من الدواعي والأسباب التي يقتضيها المقام(1).

أما المسند فلا يجوز حذفه، إلا إذا دل على دليل، ويترجح حذفه إذا كان خبراً لأسباب ودواع، منها:

- الاحتراز عن العبث بعد ذكر ما لا ضرورة لذكره، إما مع ضيق المقام من وزن أو غيره، كقول الشاعر:

فَمن يَك أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْله فَإِنِّي وقيار بهَا لغريب

وإما بدون التضييق، كقوله تعالى: ﴿وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [سورة التوبة:62]، أي: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

- وإذا كانت الجملة جواباً عن استفهام علم منه الخبر، مثل: (أبي)، جواباً لمن سألك: (من في الدار؟).
- وإذا كانت الجملة بعد (إذ) الفجائية، مثل: (خرجت فإذا محمد)، ويحتمل أن يكون الخبر: (بالباب أو حاضر).

(1) للمزيد يراجع: (الإيضاح)، و(مفتاح العلوم)، و(شروح التخليص).

- إذ كانت الجملة معطوفة على جملة اسمية، والمبتدآن مشتركان في الحكم، مثل: (أنت مسافر وأخوك)، أي: وأخوك مسافر أيضاً، وقوله تعالى: ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا**﴾ [سورة الرعد:35]، أي: وظلها دائم كذلك.
- كما يحذف لتكثير الفائدة.
- لرعاية الفاصلة، كقوله تعالى: ﴿**وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3)**﴾ [سورة الضحى:1-3]، أي: وما قلاك.

التقديم والتأخير:

باب التقديم والتأخير باب واسع؛ لأنه يشمل كثيراً من أجزاء الكلام، فالمسند إليه يقدم لأغراض بلاغية منها: إنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدأ على الخبر وصاحب الحال، ومن هذه الأغراض ما يلي:

- أن يتمكن الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إليه، كقول المعري:

والذي حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

- أن يقصد تعجيل المسرة إن كان في ذلك المسند إليه تفاؤل، مثل: (سعد في الدار)، أو الإيهام أن المسند إليه لا يزول عن الخاطر، مثل: (الله ربي).
- تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي إن ولي حرف النفي، مثل: (أما أنا قلت هذا).
- تقوية الحكم وتقريره، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ**﴾ [سورة المؤمنون:59].
- ومما يدخل في هذا الحكم، أي: تقديم المسند إليه، وهو كاللازم مثل: (وغير)، كقول الشاعر:

إن قـــاتلوا جينـــوا أو حـــدثوا شـــجعوا غيـــري بـــأكثر هـــذا النـــاس ينخـــدع

- كما يقدم لإفادة العموم؛ مثل: (كل إنسان لم يقم)، فيقدم ليفيد نفي القيام عن كل واحد من الناس.

أما المسند، يقدم لأغراض منها:

- تخصيص المسند بالمسند إليه، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة آل عمران:189].
- والتنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت، كقول حسان يمدح الرسول الكريم –ﷺ–:

لـــه همـــم لا منتهـــى لكبارهـــا وهمتـــه الصـــغرى أجـــل مـــن الـــدهر

لـــه راحـــة لـــو أن معاشـــر جودهـــا علـــى البركـــان أنـــدى مـــن البحـــر

- التفاؤل بتقديم ما يسر، مثل: (عليه من الرحمن ما يستحقه).
- التشويق إلى ذكر المسند إليه.

ومن التقديم: تقديم متعلقات الفعل عليه كالمفعول والجار والمجرور والحال، ويكون ذلك لأغراض منها: الاختصاص، والاهتمام بالمتقدم، والتبرك، وضرورة الشعر، ورعاية الفاصلة.

وهناك أنواع كثيرة من التقديم لا ترجع إلى المسند إليه والمسند، ولا إلى متعلقات الفعل عليه، رأينا عدم التعرض لها هنا.

القصر:

في اللغة: الحبس، قال تعالى: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾ [سورة الرحمن:72].

وفي الاصطلاح: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص.

طرفا القصر:

- المقصور، وهو: الشيء المخصوص
- المقصور عليه، وهو: الشيء المخصص به.

قال تعالى: ﴿**وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [سورة آل عمران:185]، فالمقصور عليه: الحياة الدنيا، والمقصور: متاع الغرور.

ومثل قولنا: (لا يعلم الغيب إلا الله)، فقد قصر علم الغيب على الله –سبحانه وتعالى– وحده، فلفظ الجلالة مقصور، والمقصور عليه علم الغيب.

ويقع القصر بين:

أ- المبتدأ والخبر، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [سورة آل عمران:144]، قصرت الرسالة على محمد وهو مبتدأ، ويسمى مقصور، ورسول خبر مقصور عليه.

ب- بين الفعل والمفعول، مثل: (ما شاهد علي إلا الحديقة)، فعليّ فاعل مقصور، والحديقة مفعول به مقصور عليه.

ج- بين المفعولين، مثل: (ما أعطيت محمداً إلا كتاباً).

د- بين الحال وصاحبها، مثل: (ما جاء راكباً إلا سعيد)، فراكباً حال مقصور، سعيد صاحب الحال مقصور عليه.

وينقسم القصر بحسب الحقيقة والإضافة إلى:

- **القصر الحقيقي**، وهو: أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الحقيقية، لا يتعداه إلى غيره أصلاً، كقول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ [سورة الرعد:19]، فالمقصور التذكر، والمقصور عليه أولو الألباب، أي: أن التذكر صيغة لا تتجاوز إلى غيرهم من سائر الناس في الحقيقة والواقع.
- **قصر إضافي**، وهو: غير الحقيقي، وذلك بأن يكون القصر فيه بالإضافة إلى شيء مخصوص لا إلى جميع ما عدا المقصور عليه، كقولنا: (ما محمد إلا كاتب)، بمعنى: أن القصر ليس مخصوصاً على محمد، أي: أن محمداً مقصور على الكتابة فقط، بحيث لا يتعدها إلى شيء آخر، لأن الحقيقية خلاف ذلك، وإنما المقصود أنه مقصور على الكتابة بالإضافة إلى شيء معين كالشعر أو الفن.

تقسيم القصر باعتبار طرفيه المقصور والمقصور عليه:

- قصر موصوف على الصفة، كقول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [سورة الزمر:3]، فالعبادة عند المشركين: صفة، وهي مقصور، ليقربونا: مقصور عليه موصوف، أي: فقد قصرت العبادة على التقريب من باب قصر موصوف على صفة.
- قصر صفة على الموصوف، مثل: (ما في الدار إلا محمد)، فالجواب هو: المقصور، وهو الصفة، ومحمد موصوف وهو المقصور عليه، إذن فقد قصر الوجود في الدار على محمد، من باب قصر الصفة على موصوف.

ملحوظة: يقصد بالصفة هنا الصفة المعنوية، لا النعت الذي يذكره النحاة.

تقسيم القصر باعتبار كونه حقيقي أو إضافي:

- **قصر حقيقي على سبيل الادعاء والمبالغة**، كقولنا: (لا شاعر في العرب إلا المتنبي)، بمعنى: أنه إذا كان هناك شعراء غير المتنبي، ولكن لا نريد الاعتراف بهم مبالغة في إضفاء الشاعرية على المتنبي، أو كقولنا: (ما حاتم إلا جواد)، أي: أن حاتماً لا يتصف بغير الجود من الصفات مبالغة في كمال الجود فيه.
- **قصر إضافي على سبيل الادعاء والمبالغة**، كقولنا: (ما عالم إلا محمد)، إذ قصرنا العلم على محمد بالنسبة إلى غيره من العلماء، أو كقولنا: (ما محمد إلا شاعر)، إذ قصر محمد على الشعر بالنسبة إلى صفات أخرى، كالرسم أو الكتابة، ويراد بذلك نفي صفات أخرى عنه.

طرق القصر (أدواته):

هي كثيرة ومتعددة، ومن أشهرها:

1- **النفي والاستثناء**، ويكون المقصور عليه بعد أداة الاستثناء، كقول الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ**﴾ [سورة آل عمران:144]، فقصرت الرسالة على محمد، فهو مقصور، ورسول مقصور عليه، وقد تم ذلك من خلال أداة النفي ما، وأداة الاستثناء إلا.

2- **إنما**، ويكون المقصور بعد إنما كقولنا: (إنما العرب أوفياء)، فالمقصور هو: العرب، والوفاء هو المقصور عليه، ونحو قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ**﴾ [سورة البقرة:173]، فالمقصور هو: التحريم، والمقصور عليه: الميتة والدم.

3- العطف، ويكون بلا، وبل، ولكن.

- أما (لا)، فيكون المقصور عليه هو: المقابل لما بعدها، كقولنا: (الأرض متحركة لا ثابتة)، فالأرض مقصور، والحركة مقصور عليه.
- وأما (بل)، فيكون المقصور عليه هو: ما بعدها، كقولنا: (ما الأرض ثابتة بل متحركة)، فالأرض مقصور، والحركة مقصور عليه، قصرت الحركة على الأرض.
- وكذلك (لكن)، فإن المقصور عليه هو: ما بعدها أيضاً.

4- تقديم ما حقه التأخير، نحو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:5]، فقد تقدم الضمير إياك، وهو المقصور عليه، فقد قصرت عليه العبادة والاستعانة على الحق سبحانه وحده.

الفصل والوصل

عدّ البلاغيون الفصل والوصل فناً عظيماً، صعب المسلك، دقيق المأخذ، لا يحيط بكنهه إلا من أوتي في كلام العرب طبعاً سليماً، ورزق في إدراك أسراره دوقاً صحيحاً.

تعريف الوصل والفصل:

الوصل هو: عطف بعض الجمل على بعض.

أما الفصل فهو: ترك العطف.

ولا يراد بذلك مشاركة الثاني للأول في الإعراب وحده، وإنما يراد أمر وراء ذلك تحدده العبارة حينما توصل بغيرها أو حينما يقتضي المعنى فصلها.

مواضع الفصل:

يجب الفصل في خمسة مواضع:

- **الأول: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام، وهو: (كمال الاتصال)، وذلك في الحالات الآتية:**

1- أن تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى، والمقتضي للتأكيد: دفع توهم التجوز والغلط، ويكون في حالتين:

أ- أن تُنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في إفادة التقرير مع الاختلاف في المعنى، من ذلك قوله تعالى: ﴿**كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا**﴾ [سورة لقمان:7]، فإن جملة: (كأن في أذنيه وقراً) هي: مقررة لما أفادته الأولى مع الاختلاف في المعنى؛ لذا وجب الفصل بينهما.

ب- أن تُنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة التأكيد اللفظي من متبوعه في اتحاد المعنى، ومنه قول الله –تبارك وتعالى–: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [سورة البقرة:2]، أي: كأنه هداية محضة، بمعنى: أنها جاءت لتأكيد المعنى؛ لذا وجب الفصل بينهما، ومن ذلك قول الشاعر:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي   إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فإن جملة: (إذا قلت شعراً) توكيد الأولى؛ لأن معنى الجملتين واحد، فوجب الفصل بينهما.

2- أن تكون الجملة بدلاً من الأولى، والمتقضي للإبدال: كون الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية، والمقام يقتضي اعتناء بشأنه؛ لكونه مطلوباً في نفسه أو فضيعاً أو عجيباً أو لطيفاً، ويأتي في حالتين:

أ- أن تنزل الجملة الثانية من الجملة الأولى بدل البعض من متبوعه، كقول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُون (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِين (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُون (134)**﴾ [سورة الشعراء:132-134]، فقد جاءت الجملة الثانية أتم في تأدية المعنى، فالإمداد بالأنعام والبنين هو بعض الإمداد بما يعلمون.

ب- أن تنزل الجملة الثانية من الأولى منزلة بدل الاشتمال، كقول الشاعر:

أقول له ارحل لا تقيمين عندنا   وإلا فكن في السر والجهر مسلما

فقد فصل جملة: (لا تقيمين) عن (ارحل) لقصد البدل، وجملة: (لا

تقيمين) أولى بتأدية المقصود من قوله: (ارحل)؛ لدلالته عليه بالمطابقة مع التأكيد؛ لذا وجب الفصل بينهما.

3- أن تكون الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى مع إفادة الإيضاح، كقول الشاعر:

النـاس للنـاس مـن بـدو ومـن حضـر   بعـض لـبعض وإن لـم يشـعروا خـدم

4- فإن جملة: (بعض لبعض)، وهي: الجملة الثانية إيضاح للأولى (الناس للناس)، وبيان لها؛ لذا لزم وجوب الفصل.

- **الثاني: أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع، وذلك في الآتي:**

1- أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء، لفظاً ومعنى، كقول الشاعر:

وقـــال رائـــدهم ارســـوا نزاولهـــا   فكـل حتـف امـرئ يجـري بمقـدار

فإن جملة: (ارسوا) إنشاء لفظاً ومعنى، وجملة (نزاولها) خبر لفظاً ومعنى والمقصود: تعليل الأمر بالإرساء بالمزاولة للحرب، أي: ارسوا السفينة لنزاول الحرب.

2- ألا يكون بين الجملتين جامع أو مناسبة، بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها، مثل: (الليل رهيب، أقبل محمد)، فلا صلة بين الجملتين؛ لذلك ترك العطف بينهما؛ لكمال الانقطاع.

- **الثالث: أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى، فتنزل منزلته، ويسمى: (شبه كمال الاتصال أو الاستئناف)، ويأتي على ضربين:**

1- سبب الحكم فيها مطلقاً، كقول الشاعر:

قـال لـي: كيـف أنـت؟ قلـت: عليـل   ســـهر دائـــم وحـــزن طويـــل

يقدر السؤال بقولنا: أي: ما بالك عليلاً؟ أو ما سبب علتك؟ والجملة الثانية إجابة عليها؛ لذا وجب عدم العطف بينهما.

2- أو عن سبب خاص، كقول الله تعالى: ﴿* وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [سورة يوسف:53]، كأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فيقال: إن النفس لأمارة بالسوء.

- **الرابع: أن يكون بين الجملتين، شبه كمال الانقطاع، بمعنى: أن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى؛ لأن عطفها عليها يوهم عطفها على غيرها، ويسمى هذا الفصل (قطعاً)، ومنه قول الشاعر:**

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلاً أراها في الظلام تهيم

إذ لم تعطف جملة: (أراها) على (تظن)؛ لئلا يتوهم السامع أنه معطوف على (أبغي) لقربها منه، مع أنه ليس بمراد، ويحتمل الاستئناف.

- **الخامس: أن تكون الجملتان متوسطتين بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، مع قيام المانع من الوصل، كأن يكون للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية، كقول الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون (14) اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون (15)﴾ [سورة البقرة:14-15]، فإن جملة: (الله يستهزئ بهم) لا يصح عطفها على جملة (قالوا)؛ لكي لا يختص استهزاء الله بهم في وقت خلوهم إلى شياطينهم؛ لأن استهزاء الله بهم في جميع الأوقات، كما لا يصح عطف (الله يستهزئ بهم) على جملة: (إنا معكم)؛ لئلا يلزم أن تكون من مقول المنافقين، مع أنها من مقول الله تعالى.**

مواضع الوصل:

يجب الوصل في ثلاثة مواضع:

- **الأول: أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع الإيهام، وذلك بأن تكون إحداهما خبرية والأخرى إنشائية، ولو فصلت لأوهم الفصل خلاف المقصود، ومنه: (لا" وأيدك الله)، ومثل: (لا ولطف الله)، ومثل: (لا وحفظك الله).**
- **الثاني: أن تكون الجملتان متفقتين خبراً وإنشاء، لفظاً ومعنى. كقول الله – سبحانه وتعالى–: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيم (14)﴾ [سورة الانفطار:13–14]، وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [سورة يونس:31].**
- **الثالث: أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب، وقصد إشراك الجملة الثانية لها في الحكم الإعرابي، وهذا كعطف المفرد على المفرد، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة:245] لزم العطف؛ لأن بينهما مناسبة وتعلق.**

الإيجاز والإطناب والمساواة

تمهيد وتقسيم:

كل ما يخطر ببال المتكلم ويجيش في صدره من المعاني لا يتجاوز التعبير عنه صورة من صور ثلاث وهي: المساواة، والإيجاز والإطناب[1].

1- فالإيجاز: جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح.

2- والمساواة: أي تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض.

3- والإطناب: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة.

ولا يُعد مجرد الكلام في أي واحد من هذه الصور بليغاً إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى حال المخاطب ويدعو إليه موطن الخطاب، فالبليغ يوجز في مقام الإيجاز، ويطنب في مقام الإطناب، ويأتي بالعبارة بين الإيجاز والإطناب في المقام المناسب لذلك، فلكل مقام مقال، فإذا كان المقام للإطناب مثلاً وعدلت عنه إلى الإيجاز أو المساواة لم يكن كلامك بليغاً في هذه الحالة[2].

ونريد هناك أن نشرح هذه الصور الثلاث، ولذلك يقتضي منا أن نقسمه إلى ثلاثة أنواع الأول في الإيجاز والثاني في الإطناب والثالث في المساواة.

---

(1) انظر: المثل السائر لابن الأثير 268/2 وما بعدها، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص179 وما بعدها، والإيضاح للقزويني ص170 وما بعدها.

(2) انظر في هذا المعنى: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص190.

الإيجاز

أولاً: تعريف الإيجاز:

الإيجاز لغة: التقصير يقال أوجز في كلامه إذا قصره، وكلام وجيز: أي قصير.

أما الإيجاز في اصطلاح علماء البلاغة: فقد اختلف صيغ التعبير عنه إلا أن حاصلها يرجع إلى مفهوم واحد هو أن الإيجاز: " اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح[1] كقوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)**﴾ [الأعراف: 199]، فهذه الآية القصيرة انطوت تحت ألفاظها القليلة كثير من مكارم الأخلاق إن لم تكن مكارم الأخلاق بأسرها[2]، وكقوله –ﷺ–: ((إن من البيان لسحراً))، فإن كلام قصير الأطراف ولكنه كثير المعاني[3].

ثانياً: أقسام الإيجاز:

الإيجاز عند البلاغيين قسمان: إيجازُ قصير، وإيجاز حذف.

القسم الأول إيجاز القصر: هو تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف، وقيل: هو الذي لا يمكن التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها، ولا

---

(1) أي: أن يكون اللفظ بأقل ما يمكن من الحروف مع وفاته بالمقصود، فإن لم يف كان إخلالاً وحذفاً رديئاً.

(2) فأخذ العفو: منه محاسنة الناس والرفق في كل الأمور والمسامحة والإغضاء، وفي الأمر بالعُرف تقوى الله وصلة الرحم وصون اللسان عن الفحش وغض الطرف عن كل محرم وفي الإعراض عن الجهال الصبر والحلم وكظم الغيظ.

(3) فهذه الجملة القصيرة تعني مما تعنية: أن من البلاغة في القول ما يعمل عمل السحر فيُظهر الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والحديث مثل يُضرب عند استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة.

يُقدِّر فيه محذوف، ويُسمَّى "إيجاز البلاغة"[1]

وللقرآن الكريم في إيجاز القصر المنزلة التي لا تسامي، والغاية التي لا تُدرك، ومن ذلك قوله –تبارك وتعالى–: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: 194]، فهذه الآية من الكلام البليغ الوجيز الذي لا يمكن التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها، لأن ألفاظها على قلتها جمعت معاني كثيرة متزاحمة، بحيث لا يسهل على البليغ أن يُعبر عنها إلا بالألفاظ الكثيرة والقول الْمُسهب الطويل، ذلك أنك إذا تأملت هذه الآية وجدت أن العدوان بجميع صورة وأنواعه قد بينت حكمة، فدخل فيه القتل بأنواعه ووسائله المختلفة، والسب والشتم واللطمة والجرح، والاعتداء على المال بأنواعه وله كثير من الأساليب والحيل المتجددة في معاملات الناس بتجدد حياتهم، وفي هذا المعنى يقول ابن حزم "فدخل تحت هذا اللفظ ما لو تُقصَّى لْمُلئت منه أسفار عظيمة"[2]

وهذه الآية قررت أيضاً قاعدة نفي الضرر والظلم وإلزام المضرور المتعدى عليه برفع هذا الضرر على ألا يزيد الواجب عن مثل الضرر الذي وقع عليه، وفي ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾ [الشورى: 40]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ [البقرة: 179]، فهذه الجملة " في القصاص حياة" من الكلام البليغ الوجيز أيضاً، والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه وقتل القاتل، امتنع غيره عن القتل وأزدجر من يريد قتل آخر مخافة أن يُقتص منه، وفي ذلك

(1) وهو –كما يقول ابن الأثير– أعلى طبقات الإيجاز مكاناً وأعوزها إمكاناً وإذا وُجد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذاً نادراً (انظر: المثل السائر لابن الأثير 238/2).

(2) انظر: الإحكام لابن حزم: 1051/8.

حياته وحياة غيره، بذلك تطول الأعمار وتكثر الذرية ويكثر العمران ويتم النظام ويقبل كل إنسان على ما يعود عليه بالنفع فالقصاص هو سبب ابتعاد الناس عن القتل، بل هو كما تُصرِّح هذه الآية السبب الحافظ للحياة، حيث جعل الله سبحانه الشيء- وهو القصاص- محلاً لضده وهو الحياة، ونكر الحياة ليدُل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف، وذلك أن العرب كانت إذا قتل الرجل الآخر حمى قبيلاهما وتقاتلوا فيقتل بالمقتول غير قاتله وتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر، وكان ذلك داعياً إلى قتل العدد الكثير، فلما شرح الله القصاص قنع الكل به وتركوا الاقتتال فلهم في ذلك حياة.

وتتبين بلاغة هذه الآية وإيجازها وفضلها بمقارنتها بما أثر عن العرب في معناها هو قولهم: "القتل أنفى للقتل"[1] بأكثر من عشرين وجهاً امتازت بها الآية، أهمها:

1- إن" القصاص حياة" لفظتان، " والقتل أنفى للقتل" ثلاث ألفاظ؟

2- إن قولهم " القتل أنفي للقتل" فيه تكرار ليس في الآية.

3- ليس كل قتل يكون نافياً للقتل إلا إذا كان القتل على حكم القصاص.

ومما ورد من إيجاز القصر في أحاديث الرسول -ﷺ-: ((لا ضرر ولا ضرار))[2]، وقد أُلِّفَت الرسائل والكتب قديماً وحديثاً وقعد الأصوليون والفقهاء القواعد من مدلول هذا الحديث[3].

---

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

(2) رواه مالك في الأقضية: (الموطأ رواية يحيى بن يحيى الليثي ص529).

(3) أخذ من هذا الحديث القاعدة الفقهية "الضرر يزال" ويتعلق بهذه القاعدة قواعد أخرى مثل: "الضروريات تبيح المحظورات بشرط عدم نقصانها عنها"، و"ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها"، =

ومن ذلك قوله: ((كل مسكر حرام))[1] فهذه الجملة: (كل مسكر حرام) من الكلام البليغ الوجيز الذي لا يمكن التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها، لأن ألفاظها على قِلَّتها جمعت معاني كثيرة متزاحمة بحث لا يسهل على البليغ أن يُعَبِّر عنها إلا بالألفاظ الكثيرة والقول الْمُسْهَب الطويل ذلك أن شمول هذا النص يقضي بتحريم كل ما صُنع ويُصنع مستقبلاً مما يشرب أو يؤكل أو يشم أو يحقن لإفساد العقل من حشيش ومخدرات وأنواعها كثيرة، وخمر وعقاقير وأنواعها أكثر.

وقوله -ﷺ-: ((المؤمن مرآة أخيه))[2] جمع هذا الحديث في كلماته الثلاث كثير من المعاني في سلاسة ووضوح وحسن سبك ما يدل على أنه -ﷺ- أوتى جوامع الكلم والتمكن من فنون البلاغة، فالمعنى أن المؤمن الحق هو الذي ينصح أخاه المؤمن فيريه الحسن من القبيح والصواب من الخطأ، لأن الإنسان لا يرى عيوب نفسه كما يراها غيره، والحديث يصور هذا المعنى في أدق تصوير وأبلغه فهو قد جمع بين "المؤمن" و" المرأة" في صفة معقولة وهي أن المؤمن ينصح أخاه بما يراه من حسن أو قبح كما ترُي المرأة الناظر إليها ما يكون بوجهه من الحسن وخلافه، فكما لا سبيل إلى أن يرى الإنسان وجهة إلا بالمرأة -أو ما جرى مجراها من المقصولات- فكذلك لا سبيل إلى أن يرى الإنسان عيوبه إلا عن طريق أخيه المؤمن.

=

و"الضرر لا يزال بالضرر"، و"إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما". (أنظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص83 وما بعدها).

(1) رواه البخاري في كتاب الأشربة (انظر صحيح البخاري:15/4).

(2) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الأدب باب النصيحة والحياطة، والترمذي في جامعه، في كتاب البرِ والصلة باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم.

ومن إيجاز القصر في كلام العرب: توقيع أبي جعفر المنصور على كتاب لعاملة على حمص وقد كثر فيه الخطأ "استبدل بكاتبك، وإلا استبدل بك"[1] فلو أردت أن تضع معنى هذا التوقيع في صيغة أخرى مختصرة لما تَهيَّأ ذلك في أقل من ضعيف ألفاظه، كأن تقول مثلاً: ضع مكان كاتبك كاتباً آخر وإلا تفعل فسيوضع مكانك عامل آخر، على أن ألفاظ التوقيع على سلاستها ووضوحها أكثر اتساقاً وانسجاماً.

ووقع أبو جعفر المنصور أيضاً في شكوى قوم من عاملهم: " كما تكونوا يُؤَمَّر عليكم"[2] ووقع جعفر بن يحيى لعامل كثُرت الشكوى منه: "كثُر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتَزَلْتَ"

فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وكل ذلك في سلاسة ووضوح وحسن سبك، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها وابنها بناء آخر، فإنك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ على حد قول أبي هلال العسكري.

القسم الثاني: إيجاز الحذف: ويُعرِّفه البلاغيون بقولهم: "هو: ما يحذف منه كلمة[3]، أو جملة فأكثر مع قرينه تُعيِّن المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه[4]، أي أن إيجاز الحذف يكون بحذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم عند وجود

---

(1) أي: اتخذ مكان كاتبك كاتباً آخر، وإلا أقيم مكانك عاملاً آخر.

(2) أمره عليهم: جعله أميراً.

(3) الكلمة المحذوفة: إما حرف، وإما فعل، وإما اسم، والاسم المحذوف قد يكون مضافاً، أو موصوفاً، أو صفة.

(4) وعن هذا النوع من الإيجاز يقول ابن الأثير: "أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر شبيه بالسحر، وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبيناً إذا لم تبين" (المثل السائر/268/2).

ما يدل على المحذوف من قرينة لفظه أو معنوية وإلا كان الحذف رديئاً والكلام غير مقبول(1)، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أُظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يُناسب ما كان عليه من الرونق والحسن.

وهو –أي: الحذف– يُعد مذهباً من مذاهب العرب في فن القول ويتلخص عندهم في الاختصار وعدم التكرار، ولذا فهو يقع كثيراً في أساليب البلغاء وإذا تتبعنا المحذوف في هذا القسم من أساليب الإيجاز فإننا نجده يأتي على نوعين: إما حذف مفرد – أي كلمة – وإما حذف جملة فأكثر.

ونتناول هذين النوعين بالتفصيل مبتدئين بحذف المفرد –أي الكلمة– فيما يأتي:

النوع الأول: حذف المفرد:

حذف المفرد أكثر استعمالاً من حذف الجملة وهو يأتي على وجوه مختلفة منها:

1- **ما يكون المحذوف فيه حرفاً،** كقوله تعالى: ﴿**وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)**﴾ [مريم: 20]، أصله: "ولم أكن" فحُذف النون من الكلام وهي مفهومه منه. وكقوله تعالى: ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85)**﴾ [يوسف: 85](2)، فالمراد: "تالله لا تفتأ" أي

---

(1) وفي هذا المعنى يقول ابن الأثير: "والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب" (انظر: المثل السائر 268/2).

(2) الحرض: مصدر حرض –بكسر الراء– ومعنى الْحَرَض: القرب من الهلاك، والْمُراد به هنا الشخص القريب من الهلاك على وجه المبالغة فالمعنى حتى تكون قريباً من الهلاك أو تهلك فعلاً.

لا تزال، فَحُذِفت "لا" من الكلام وهي مُراده[1]، ومن هذا قولُ القائل:

رأيتُ الخمْرَ جامحةً وفيها | خصالٌ تفسدُ الرجلَ الحليما
فلا واللهِ أشربها حياتي | ولا أسقي بها أبداً نديما

يريد: لا أشربها، فَحَذف "لا" من الكلام وهي مفهوم منه.

2- **ما يكون المحذوف فيه مسنداً**، كقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: 25]، أي: ليقولُنَّ خلقهن الله.

3- **ما يكون المحذوف فيه مسنداً إليه**، كما في قول الشاعر:

قالَ لي: كيفَ أنتَ؟ قلتُ: عليلٌ | سهرٌ دائمٌ وحزنٌ طويلُ

أي: قلتُ أنا عليلٌ، فحذف الْمُسند إليه" ضمير المتكلِّم" لدلالة الكلام عليه، وكما في قول الشاعر:

أَمَاوِيُّ ما يُغْني الثراءُ عن الفتي | إذا حَشْرجَت يوماً وضاقَ بها الصَّدر

والتقدير: إذا حشرجت النفسُ يوماً، حيث حذف "النفس" لدلالة الكلام عليها.

4- **ما يكون المحذوف فيه اسماً موصوفاً وإقامة الصِّفَة مقامه:** وهو فاشٍ كثير الدوران في الكلام، كقوله -تبارك وتعالى-: ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً**﴾ [الإسراء: 59]، فإنه لم يُرد أن الناقة كانت مبصرة ولم

(1) وعلى هذا جاء قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً | ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي: لا أبرح قاعداً، فحذفت "لا" في هذا الموضع أيضاً وهي مرادة.

تكن عمياء، وغنما يريد: آيةً مبصرة فحذف الموصوف وهو "آية" وأقام الصفة مقامه.

وقوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52)**﴾ [ص: 52]، أي: حورٌ قاصرات الطَّرف، فحذف الموصوف وهو "حورٌ" وأقام الصفة مقامه. وأكثر ما يكون حذف الموصوف في النِّداء وفي المصدر.

أما النداء فنحو قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49)**﴾ [الزخرف: 49]، أي: يا أيها الرجل السّاحر. وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [البقرة: 104]، أي: يا أيُّها القوم الذين آمنوا. حُذف الموصُوف في كلّ من الآيتين وأُقيمت الصّفة مقامه.

وأما المصدر فكقوله –تبارك وتعالى–: ﴿**وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)**﴾ [الفرقان: 71]، أي: ومن تاب وعمل عملاً صالحاً.

5- **ما يكون المحذوف فيه صفة وإقامة الموصوف مقامها:** وهو نادر[1]، كقوله تعالى: ﴿**فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125)**﴾ [التوبة: 125]، وهذا الحذف لا يسوغ إلا في صفة تقدمها ما يدل عليها أو تأخر عنها أو فُهم ذلك من شيء خارج عن الكلام.

أما الصفة المحذوفة التي تقدمها ما يدلّ عليها فنحو قوله تعالى: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ**

(1) إنما قل حذف الصفة وكثر حذف الموصوف، لأن الصفة ما جاءت إلا للإيضاح والتبيان فكثر أن تقوم مقام الموصوف بخلافة هو فإنه يكثر إيهامه، فلا جرم كان قيامه مقامها نادراً.

غَصْبًا (79)﴾ [الكهف: 79]، أي: يأخذ كل سفينة صحيحة غصباً، فحذفت الصفة"صحيحة" هنا لأنه تقدَّمها ما يدل عليها وهو قوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79]، فإن عيبه إياها لم يخرجها عن كونها سفينة، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب.

وأما الصفة المحذوفة التي تأخَّر عنها ما يدلُّ عليها فقول القائل:

كلُّ امرئٍ ستئيمُ منه العِرْسُ أو منها يئيم[1]

تقديره: كل امرئ متزوِّج، لأن المعنى لا يصح إلاّ به، إذ دلَّ عليه ما بعدها من قوله: "ستئيم منه أو منها يئيم"، إذا لا تئيم هي إلا من زوج، ولا يئيم هو غلا من زوجه[2].

وأمَّا الصفة المحذوفة التي يدل عليها شيءٌ خارج عن الكلام فقول النبي –ﷺ–: ((لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد))، والتقدير: لا صلاة أفضل أو أكمل لجار المسجد إلا في المسجد، وهذا التقدير لم يُعْلم من نفس اللفظ وإنما عُلِمَ من شيء خارج عنه، حيث أنه قد عُلم جواز صلاة جار المسجد في غير المسجد من غير هذا الحديث، فعُلم حينئذٍ أنّ الْمُراد بالنفي في هذا الحديث نفي الفضيلة والكمال وليس المراد نفي حقيقة الصلاة.

---

(1) العِرْسُ: بكسر العين وسكون الراء: امرأةُ الرَّجل، والجمع: أعراس، وآمت المرأة من زوجها تئيمُ أيماً: إذا مات عنها زوجها أو قُتل وأقامت لا تتزوج، وكذلك آم الرجل من زوجته يئيم: إذا ماتت عنه زوجته ولم يتزوج بعدها، والمعنى كل امرئ متزوج سيأتي عليه يوم تفقده فيه زوجته، وكذلك كل امرأة متزوجة سيأتي عليها يوم يفقدها فيه زوجها.

(2) فجاء بعد الموصوف ما دل عليه، ولو لا ذلك ما صح معنى البيت، إذ ليس كل امرئ يئيم من عرس ولا تئيم منه عرْس إلاّ إذا كان متزوجاً .

6- **ما يكون المحذُوف فيه اسماً مضَافاً:** وهو كثير الاستعمال في الكلام كقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96)**﴾ [الأنبياء: 96]، أي: سدّهما. وقوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾ [الحج: 78]، أي: وجاهدوا في سبيل الله. وقوله تعالى: ﴿**لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾ [الأحزاب: 21]، أي: رحمة الله. وقوله: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)**﴾ [النحل: 50]، أي: عذاب ربهم. ونحو قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82)**﴾ [يوسف: 82][1]، أي: اسأل أهل القرية وأصحاب العير.

7- **ما يكون المحذوف فيه اسماً مضافاً إليه:** وهو قليل، نحو قوله تعالى: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ**﴾ [الأعراف: 142]، أي: بعشر ليال. وقوله تعالى: ﴿**لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ**﴾ [الروم: 4]، أي: من قبل ذلك ومن بعده.

8- **ما يكون المحذوف فيه القسم أو جوابه:** فأمّا حذف القسم فنحو قولك: "لأخرُجَنَّ" أي: والله لأخرُجنَّ، "لأفعلنّ" أي: والله لأفعلنّ أو غير ذلك من الأقسام المحلوف بها.

وأما حذف جواب القسم -وهو كثير في القرآن- فنحو قول الله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي**

(1) والعير: اسم للإبل التي تحمل المتاع، وأريد بها هنا أصحابها.

حِجْرٍ (5)﴾ [الفجر: 1-5]، تقديره: لَتُعَذَّبُنَّ يا كفار مكة، والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر عذاب الأمم السابقة.

وقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2)﴾ [ق: 1-2]، وتقدير الكلام: ق والقرآن المجيد لتبعثن، والشاهد على ذلك ما بعده من ذكر البعث في قوله تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)﴾ [ق: 3].

9- **ما يكون المحذوف فيه الشرط، أو جواب الشرط:** وذلك من ألطف ضروب الإيجاز وأحسنها.

فأمّا حذف جملة الشرط: فنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48)﴾ [العنكبوت: 48]، ففي الآية إيجاز بحذف جملة الشرط، لأن تقدير الكلام: "إذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون" وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، أي: فإن تتبعوني يحببكم الله.

وأما حذف جواب الشرط فكثير شائع: نحو قوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، ففي الآية إيجاز بحذف جواب لو، إذ تقدير الكلام: لرأيت أمرً فظيعاً، فحُذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب بأن الشّرط المذكور لا بدّ له من جواب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31]، ففي الآية إيجاز بحذف جواب لو أيضاً، إذ تقدير الكلام: لكان هذا القرآن. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (4)﴾ [فاطر: 4]، ففي الآية إيجاز حذف لأن جواب "إن"

محذوف، وتقدير الكلام: "وإن يكذبوك فلا تجزع فقد كذبت رسل من قبلك" وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: 106]، فقد حذف جواب أمّا وأصل الكلام: "فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم".

هذا عن النوع الأول من أنواع إيجاز الحذف وهو حذف مفرد أو كلمة[1].

النوع الثاني: من أنواع الإيجاز الحذف هو حذف جملة[2] أو أكثر:

فمن أمثلة ما يكون المحذوف فيه جملة: قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: 213]، أي: فاختلفوا فبعث الله النبيين، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60]، أي: لضربه بها، ومن هذا شعراً قول أبي الطيب:

أتـى الزَّمـانَ بنُـوهُ فـي شَـبِيَبتِهِ   فَسـرَّهُمْ وأتينـاه علـى الْهَـرَمِ[3]

ففي هذه البيت إيجاز بحذف جملة، والتقدير: وأتيناه على الْهَرَمِ فَسَاءَنَا، ونحو: أكلتُ فاكهة وماء، ففي هذه العبارة إيجاز بحذف جملة، إذا التقدير: وشربتُ ماء.

ومن أمثلة الإيجاز بحذف أكثر من جملة[4]: قوله تعالى حكاية عن الفتية الذي

---

(1) وهذا النوع من الحذف يتصرف على أربعة عشر وجهاً أتينا هنا على تسعة أوجه منها على سبيل المثال.

(2) المراد بالجملة هنا الكلام المستقل بالإفادة الذي لا يكون جزءاً من كلام آخر وغلا دخل الشرط والجزاء وقد تقدم عد حذفهما من حذف المفرد.

(3) يقول: إن بني الزمان من الأمم السابقة جاءوا في حداثة الدهر فسرهم، ونحن أتيناه وقد هرم فلم يبق عنده ما يسرنا به.

(4) وحذف الجمل أكثر ما يرد في كلام ربّ العالمين وهو الغاية في الفصاحة والنهاية في مراتب البلاغة.

أرسله العزيز إلى يوسف ليسْتَعْبره الرؤيا: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)﴾ [يوسف: 45-46]، فالمحذوف هنا جُمل عِدة، ونظمُ الكلام من غير حذف أن يُقال: "فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه فأتاه وقال له: يا يوسف أيها الصديق".

وقوله تعالى في حكاية موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مع ابنتي شعيب: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)﴾ [القصص: 24-25]، والمعنى: " فذهبَتا على أبيهما وقصَّتا عليه ما كان من أمر موسى فأرسل إليه فَجَاءَتْهُ إحداهُما تمشي على استحياء".

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)﴾ [البقرة: 73]، أي: فضربوه بها فحيي فقلنا كذلك يحيي الله الموتى.

والمحذوف إذا كان كذلك دلّ عليه الكلام دلالة ظاهرة، لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه.

وهكذا تَرَى أنّ في جميع ما أوردناه هنا من الأمثلة على الإيجاز، يتمثّل في حذف جملة أو أكثر من جملة، ولذلك سُمِّي "إيجاز الحذف".

الإطناب

أولاً: تعريف الإطناب:

الإطناب لغة: مصدر أطنب في كلامه إذا بلغ فيه وطَوَّل ذيوله، أي أنه المبالغة والتطويل في إيراد المعاني.

أما في الاصطلاح: فقد تعدَّت تعريفات علماء البلاغة له[1] إلا أن جميع هذه التعريفات تلتقي في المضمون وإن اختلفت في الألفاظ وحاصلها أن الإطناب هو: "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"[2] أو هو "تأدية المعنى بعبارة زائدة عن المتعارف[3] لفائدة تقويته وتوكيده[4]

(1) انظر: كتاب الحيوان، للجاحظ (7/6)، والبيان والتبيين للجاحظ أيضاً (105/1)، ومشكل القرآن لابن قتيبة (ص232)، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ص190-191)، والمثل السائر لابن الأثير (ص217).

(2) أي تأدية أصل المراد بلفظ زائد عليه لفائدة. انظر: في التعريف: المثل السائر لابن الأثير (ص217)، والإيضاح للقزويني (ص170)، والتلخيص لجلال الدين الخطيب (ص210).

(3) المتعارف: أي متعارف أوساط البلغاء، وهم الذين لم يرتقوا إلى درجة البلغاء، ولم ينحطوا إلى درجة البسطاء.

(4) فخرج بذكر الفائدة التطويل والحشو:

والتطويل: هو زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة إن كانت الزيادة في الكلام غير متعينة كقوله القائل:

ألا حبــــذا هنــــد وأرض بهــــا هنــــد وهنــدٌ أتــى مــن دونهــا النّــأي والبعــدّ

فقد عاب النقاد عليه ذكر كلمتين بمعنى واحد وهما: "النأي" والبعد" ولا يتعيّن أحدهما للزيادة، لأن العطف بالواو لا يفيد تقريباً ولا تعقيباً ولا معيّة فلا يتغيّر المعنى بإسقاط أيهما شئت:

والحشو: إن كانت الزيادة في الكلام متعيّنة لا يفسد بها المعنى. كقول زهير بن أبي سلمى:

=

ثانياً: أنواع الإطناب وأغراضه البلاغية:

أوضح البلاغيون أن الإطناب يأتي في الكلام على أنواع مختلفة لأغراض بلاغية منها:

1- **ذكر الخاص بعد العام:** والغرض البلاغي من هذا النوع من الإطناب هو زيادة الاهتمام بالخاص والتنبيه على ما له من مزيّة فضل حتى كأنه لفضله ورفعته جزء آخر مغاير لما قبله وليس من جنسه(1).

ومن أمثلة قوله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98)**﴾ [البقرة: 98]، فقد خص الله سبحانه "جبريل وميكال" بالذكر مع أنهما داخلان في الملائكة والغرض البلاغي لهذا الذكر- أي الإطناب- هو التنويه بشأن الخاص – أي رَفْعُ ذِكْرِه – بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خص " جبريل وميكال" بالذِّكر مع أنهما داخلان في عموم"ملائكته" تنبيهاً على زيادة فضلهما حتى كأنهما لزيادة فضلهما جنس آخر مغاير لما قبلهما.

ومنه قوله تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)**﴾ [البقرة: 238]، فقد خصّ الله سبحانه وتعالى "الصلاة الوسطى" أي صلاة العصر – على الرأي الراجح – بالذِّكر مع أنها داخلة في عموم الصلوات تنبيهاً على زيادة فضلها حتى كأنها لزيادة فضلها جنس آخر مغاير لما قبلها.

=

وأعلـــمُ علـــم اليـــوم والأمـــس قبلـــه   ولكنَّنـــي عـــن علـــم مـــا فـــي غـــدٍ عمـــي

والشاهد في قوله "قبله" فهو حشو، لأنه معلوم من قوله" أمس" فالأمس هو قبل اليوم وكل من الحشو والتطويل معيب في البيان، فكلاهما بمعزل عن مراتب البلاغة.

(1) انظر: فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص324.

2- **ذكر العام بعد الخاص:** لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص. كقوله تعالى يحكي دعاء نوح عليه السلام: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)**﴾ [نوح: 28]، فلفظ "المؤمنين والمؤمنات" لفظان عامّان يدخل في عمومهما من ذُكِرَ قبل ذلك، أي "لي ولوالدي"، والغرض من هذا الإطناب إفادة العموم مع العناية بالخاص لذكره مرّتين: مرّة وحدة ومرّة مندرجاً تحت العام.

3- **الإيضاح بعد الإبهام:** وذلك بأن يُذكر المعنى مرّتين في صورتين مختلفتين: إحداهما مجْمَلة مُبْهَمة والأخرى مُفَصّلة مُوَضّحة. وهذا من شأنه أن يُمكِّن المعنى في النفس ويُقرّره في ذهن السامع، لأن الكلام إذا قرع السمع على سبيل الإجمال والإبهام تشوّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فإذا أُلْقِيَ مُوَضّحاً بعد ذلك تَمكّن فيها فضل تمكّن وكانت لذّتها بالعلم به أكمل وشعورها به أتم.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)**﴾ [آل عمران: 104]، فقوله تعالى: ﴿**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ [آل عمران: 104]، إيضاح الإجمال أو الإبهام الذي سبق في قوله: ﴿**يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾ [آل عمران: 104]، وفائدة الإيضاح بعد الإبهام هنا إيراد المعنى في صورتين مختلفتين مرّة على طريق الإجمال والإبهام ومرّة على طريق الإيضاح والتفصيل ليكون ذلك أوقع في نفس السامع.

ومن هذا النوع من الإطناب أيضاً، قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**

بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)﴾ [الصف: 10-11]، فقوله تعالى: ﴿**تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10)**﴾ [الصف: 10]، كلام مجمل مبهم فُصِّل بالكلام الذي جاء بعده، وهو: ﴿**تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ**﴾ [الصف: 11]، ومّزيَّة ذلك أن يُدرِك المخاطب المعنى في صورتين مختلفتين إحداهما مبهمة والأخرى موضحة، فإن لهذا وقعاً عظيماً في النفوس.

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120)**﴾ [طه: 120]، فقوله تعالى ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ**﴾ [طه: 120]، كلام مجمل مبهم فُصِّل بالكلام الذي جاء بعده، ومزيَّة ذلك أن يدرك المخاطب المعنى في صورتين مختلفتين إبهاماً وإيضاحاً فإن لهذا وقعاً عظيماً في النفوس.

ومن الإيضاح بعد الإبهام التوشيع(1): وهو أن يُؤْتى في آخر الكلام بمُثنًّى مُفَسَّر باسمين أحدهما معطوف على الآخر ليُرى المعنى في صورتين يَخرُج فيهما من الخفاء المستوحش إلى الظهور المأنوس. نحو قول الرسول -ﷺ-: ((خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق)). ونحو: العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان.

ومن ذلك شعراً قول ابن الرومي يمدح عبد الله بن وهب:

إذا أبــو قاســم جــادَتْ لنــا يَــدُه ... لـم يُحمَـد الأجـودان: البحـر والمطـر

وإن أضـــاءت لنـــا أنـــوار عزتـــه ... تَضــاءَل النَّيِّــران: الشــمس والقمــر

---

(1) التوشيع لغة: لفّ القطن المندوف.

4- التكرارُ لداعٍ: وهو تكرير المعاني والألفاظ لفائدة. والتكرير جاء منه شيء كثير في القرآن الكريم وكلام العرب، لدواعي وأغراض بلاغية منها:

أ- للتأكيد وتقرير المعنى في ذهن السامع وتثبيته: كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (18)**﴾ [الانفطار: 17-18]، فقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (17)**﴾ [الانفطار: 17]، الأولى هي إنذار للذين يكذبون بالدين وبيوم الدين، وفي تكرير نفس اللفظ مع دخول الحرف "ثم" عليه تأكيد لهذا الإنذار وجعله أبلغ وأشد من الأول. وكقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6)**﴾ [الشرح: 5-6]، فإطناب التكرير هنا أفاد أيضاً توكيد المعنى وتقريره في نفوس السامعين.

ب- طول الفصل لئلاّ يجيء الكلامُ مبتوراً: كما في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)**﴾ [النحل: 119]، ففي هذه الآية إطناب بتكرار ﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ [النحل: 119]، والداعي إلى هذا التكرار طول الفصل، والقصدُ إلى ربط أول الكلام بآخره ربطاً وثيقاً. وقوله تعالى ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4)**﴾ [يوسف: 4]، ففي هذه الآية أيضاً إطناب بتكرار جملة "رأيت" لطول الفصل بين "رأيت" الأولى ومتعلقها وهو "لي ساجدين" ولقصد ربط أول الكلام بآخره خشية أن يكون الذهن قد غفل عما ذُكر أولاً. ومن هذا قول الشاعر:

لقــد علــم الحــيُّ اليمــانون أنَّنــي　　　إذا قلــتُ أمَّــا بعــدُ أنِّــي خَطِيبُهــا

ففي هذا البيت كُرِّرت لفظة " أنِّي" لطول الفصل بين اسم "إنني" الأولى وخبرها.

ج- استمالة المخاطب إلى قبول الخطاب والاستماع إلى الإرشاد، كقوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)**﴾ [غافر: 38-39]، ففي تكرار لفظ: "يا قوم" تعطف لقلوبهم حتى لا يشكوا في إخلاصه لهم ونصحه، واستمالتهم إلى قبول خطابه والاستماع إلى إرشاده.

د- التَّحسّر: كقول أعرابية ترثي ولديها:

يـا مَـنْ أَحَـسَّ بُنَيَّـيَّ اللـذَين همـا   كالـدُّرَّتَينِ تشَـظَّى عنهُمـا الصَّـدَفُ

يـا مَـنْ أَحَـسَّ بُنَيَّـيَّ اللـذَين همـا   سَمْعِي وَطَرفِي فَطَرْفِي اليومَ مُخْتَطَفُ[1]

فالغرض من التكرار هنا هو التّحسّر وإظهار الجزع على فقد الولدين.

هـ- الفخر: كقول عنترة بن شداد في بعض روايات معلقّته:

يَـدْعُون عَنْتَـر والرِّمـاحُ كأنَّهـا   أشْـطانُ بئـرٍ فـي لَبَـانِ الأَدْهَـمِ[2]

يَـدْعُون عَنْتَـر والسُّـيُوفُ كأنَّهـا   لَمْـعُ البَـوَارِقِ فـي سَـحَابٍ مُظْلِـمِ

و- التعجب: كقوله تعالى: ﴿**فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20)**﴾ [المدثر: 19-20].

---

(1) تشظى الصدف: تطاير شظايا، والشظايا جمع شظية: وهي الفلقة من العصا ونحوها، والطرف: البصر.

(2) أشطان البئر: حباله. ولبان الأدهم: صدر الفرس.

5- الإيغال[1]: وهو ختم البيت بكلمة أو جملة يتم المعنى بدونها ولكن التّصريح بها يعطي البيت قافيته ويُضيف إلى معناه التّام معنى زائداً لزيادة المبالغة والتأكيد. كقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه عَلَمٌ في رأسه نار

فقولها: "في رأسه نار" من الإيغال الحسن، لأن معنى البيت يتم عند قولها: "كأنه علم" فهو وافٍ بالمقصود، ولكن الخنساء لم تكتف في تشبيه أخيها الذي يأتم الهداة به بالعَلَم –وهو الجبل المرتفع المشهور بالهداية– حتى أوغَلت فجعلت "في رأسه نار" فأعطت البيت بذلك قافيته، ثم أضافت بهذه الزيادة على معنى البيت التام معنى جديداً، وهو أنّ أخاها لا يشبه الجبل المرتفع فقط ولكنه يشبه الجبل الذي فوق قمته نار، لِمَا في ذلك من زيادة الظهور والانكشاف.

وقيل لا يختص الإيغال بالشّعر بل يكون في النّثر. كقوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)**﴾ [يس: 21]، فمعنى الآية يتم بدون التصريح بقوله: ﴿**وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)**﴾ [يس: 21]، وذلك لأن الرسل مهتدون لا محالة، إلاّ أنّ في التصريح بذلك إيغال فيه زيادة حثّ وترغيب على إتّباع الرُّسل.

6- الاحتراس ويقال له التكميل أيضاً: وهو أن يُؤتَى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، أي أنّ الإطناب بالاحتراس يكون حيثما يأتي المتكلّم بمعنى يمكن أن يَدخُل عليه فيه لوم، فَيفطَن لذلك ويأتي بما

(1) من أوغل في البلاد إذا أبعد فيها.

يُخلِّصه منه. والإطناب بالاحتراس الذي يُؤتَى به في الكلام لتخليصه مما يوهم خلاف المراد قد يتوسط الكلام وقد يقع في آخره.

فمن أمثلة الاحتراس الذي يكون في وسط الكلام قول الشاعر في المديح:

ويَهتَـــزُّ للجَــــدْوى إذا مــــا مَدَحْتَــــهُ　　كما اهتَزَّ "حاشاَ وَصفَهُ" شاربُ الخمر

فجملة" حَاشاَ وَصْفَهُ" جاءت للاحتراس، لأنّ الشاعر لمَّا قال: كما اهتزّ شارب الخمر" فَطَنَ إلى سوء التشبيه الذي لا يليق بعظمة ممدوحه، فسارع إلى دفع الوهم وقال: "حَاشاَ وصفهُ". وقول طرفه بن العبد:

فَسَــــقَى ديــــاركَ غيــــرَ مفســــدها　　صَــــوْبُ الربيــــع ودَيمَــــةٌ تَهْمِــــي

فقوله: "غير مفسدها" احتراس وتحرّز لدفع الوهم من المفسد، لأنه لمَّا كان المطر ممّا يُسبب الخراب دفَع الوهم بقوله: "غير مفسدها".

ومن أمثلة الإطناب بالاحتراس: الذي يكون في آخر الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ [القصص: 32]، ففي الآية الكريمة إطناب بالاحتراس، فإن قوله تعالى: ﴿**تَخْرُجْ بَيْضَاءَ**﴾ [القصص: 32]، مُوهِمٌ أن يكون ذلك البياض لمرض كالبرص أو سوء أصابها فأتى بقوله: ﴿**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ [القصص: 32]، لدفع هذا الإيهام. ونحو قول عنترة:

يُخْبِــرْكِ مَــنْ شَــهِدَ الوَقيعــةَ أَنَّنــي　　أَغْشَــى الــوَغَى "وأَعِـفُّ عِنْـدَ الْمَغْـنَمِ"(1)

---

(1) الوقيعة: القتال، والوغى في الأصل: صوت المقاتلة في الحرب ثم استعمل في الحرب نفسها، يقول: أنه يغشى الحرب شجاع، فإذا كانت الغنيمة كف عفه؛ لأنه لا يقاتل لأجلها.

فجملة: "وأعفُّ عند المغنمِ" احتراس، وقد أتى بها عنترة ليدفع ما قد يتوهمه السامع من أنّه إنَّما يغشى الحروب رغبة في مغانمها.

7- الاعتراض: وهو أن يُؤْتَى في أثناء الكلام أو بين كلامين مُتَّصلين في المعنى بجملة معترضة -أو أكثر- لا ملح لها من الإعراب لأغراض يقصد إليها البليغ غير دفع الإيهام(1).

ومن أغراض الإطناب البلاغية بالاعتراض:

أ- **التنبيه على أمر من الأمور**: ومن الإطناب المعجز في ذلك ما ورد في وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)**﴾ [البقرة: 23-24]، يفيد التنبيه على استحالة معارضة القرآن والإتيان بسورة من نوعه. ومنه قول أبو الفتح البستي:

إذا حمِدَ الكريمُ صَباحَ يَومٍ ... "وَأَنَّى ذَاكَ" لَمْ يَحْمَدْ مَساءَه(2)

ففي هذا البيت اعتراض الشاعر بين جملتي الشرط والجواب بجملة "وأنى ذاك"، والغرض من الاعتراض هنا الإسراع إلى التنبيه على أن الزمن مُولع دائماً بالإساءة، وأنه من البعيد جداً أن يمر بالإنسان وقت سعيدٌ لا شكاية منه. وكقول النابغة الجعدي:

---

(1) فإن كان الغرض دفع الإيهام كان احتراساً.

(2) يقول: إن الدهر قلب لا يدوم على حال، فإذا سر إنساناً في صباح يومه أساء إليه في مساءه، ومن سره زمن ساءته أزمان.

أَلاَ زَعَمَــــتْ بَنُــــو سَــــعْدٍ بــــأَنِّي "أَلاَ كَــــذَبُوا" كَبيــــرُ السِّــــن فــــانِي

فجملة "ألا كذبوا" اعتراضية هنا بين اسم إنّ وخبرها، وقد جاءت للإسراع إلى التنبيه على كذب من رماه بالكبر.

ب- **التنـزيـه:** وذلك كقوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57)**﴾ [النحل: 57]، فجملة "سبحانه[1] في الآية الكريمة معترضة في أثناء الكلام لغرض بلاغي هو المسارعة إلى تنزيه الله سبحانه وتعالى وتقديسه عما ينسبون إليه.

ج- **الدعاء:** كقول القائل: إني – حفظك الله – مريض، فقوله: "حفظك الله" جملة معترضة بين اسم إن وخبرها قصد الشاعر بها الدعاء لمن يخاطبه استدراراً لعطفه عليه. ومن أمثلة الإطناب بالاعتراض للدعاء أيضاً قول العباس بن الأحنف:

إِنْ تَــــمَّ ذَا الْهَجْــــرُ يَــــا ظَلُــــومُ "وَلا تَــمَّ" فمــا لِــي فــي العَــيْشِ مِــنْ أَرَبِ[2]

فجملة" ولا تم" معترضة بين الشرط وجوابه، وقد قصد الشاعر بهذا الاعتراض أن يسارع إلى دعاء الله ألا يُقدِّر وقوع هذا الهجر والتقاطع بينه وبين من يحب، والواو السابقة للجملة الاعتراضية ليست واو الحال ولا العطف وإنما هي "واو الاعتراض".

د- **التقرير في نفس السامع:** نحو قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**﴾ [البقرة:

---

(1) هو جملة لأنه مصدر بتقدير الفعل.

(2) ظلوم: اسم امرأة.

72-73][1]، فقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72)﴾ [البقرة: 72]، جاءت معترضة لتقرير أن تدافُع بني إسرائيل في قتل النفس ليس نافعاً في إخفائه وكتمانه، لأن من لا تخفى عليه خافية مُظهرهُ لا محالة.

هـ- **إظهار التحسر**: كقول إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه:

وَإِنِّي "وإن قُدِّمْتَ قَبْلِي" لَعَالِمٌ   بِأَنِّي "وإِنْ أُخِّرْتُ" مِنْكَ قَرِيبُ

ففي هذه البيت إطناب بالاعتراض في كل من شرطيه، وهو في الشطر الأول" وإن قدمت قبلي" وهو في الثاني " وإن أخرت" والغرض البلاغي الذي قصد إليه الشاعر من وراء هذين الاعتراضين هو إظهار الأسى والتحسر على أن الموت سبق إلى ولده.

و- التهويل والتعظيم: نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78)﴾ [الواقعة: 75-78]، فموضع الإطناب بالاعتراض في الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)﴾ [الواقعة: 76]، وهذا الاعتراض هو الواقع اعتراضان: أولهما: "وإنه لقسم عظيم" والثاني هو "لو تعلمون"[2]، والغرض البلاغي منهما هو تهويل القسم بمواقع النجوم وتفخيم أمره، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه – وهو القرآن الكريم – وتنويه برفعة شأنه.

(1) قوله: {فَادَّارَأْتُمْ}: تدافعتم واختصمتم.

(2) وهذا يعني أنه قد يقع الاعتراض في الاعتراض كما في هذه الآية.

فالإطناب بالاعتراض كما يبدو من الأمثلة السابقة وعلى اختلاف أغراضه لا يكمّل المعنى فحسب، وإنما يُضفي عليه ظلالاً من الحسن[1].

8- التذييل: الإطناب بالتذييل هو تعقيب الجملة بجملة أخرى مستقلة تشتمل على معناه توكيداً لها.

وينقسم التذييل إلى قسمين: قسم يستقل بمعناه لجريانه مجرى المثل وقسم لا يستقل بمعناه لعدم جريانه مجرى الأمثال.

فالأول: هو التذييل الجاري مجرى المثل: لاستقلال معناه واستغنائه عما قبله، أن يقصد بالجملة الثانية حكم كلي منفصل عما قبله، جار مجري الأمثال في فشو الاستعمال: كقوله تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)**﴾ [الإسراء: 81]، فجملة "إن الباطل كان زهوقا" تشتمل على معنى الجملة السابقة" وقل جاء الحق وزهق الباطل" وقد عقب بها عليها توكيداً لمعناها، وإذا تأملت جملة التذييل وهي: "إن الباطل كان زهوقا" وجدتها مستقلة بمعناها لا يتوقف فهمها على فهم ما قبلها، ومن أجل ذلك يقال لهذا النوع من الإطناب بالتذييل إنه"جار مجرى المثل"

وكقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)**﴾ [يوسف: 53]، فجملة "إن النفس لأمارة بالسوء" تعقيب على الجملة السابقة، تشتمل على معناها توكيداً لها، وهي في الوقت ذاته مستقلة بمعناها لا يتوقف

(1) ويمكن إدراك هذه الحقيقة في أي مثال من هذه الأمثلة إذا ما قارنا بين معناه باعتراض ومعناه مجرداً منه.

فهمها على فهم ما قبلها ولهذا يقال إنها إطناب بالتذييل جار مجرى المثل ومما ورد شعراً من هذا النوع قول أوس بن حجر:

ولسـتُ بِخَـابِئٍ أبـداً طعامـاً   حِـذَارَ غَـدٍ لِكُـلِّ غَـدٍ طَعَـامُ

فقوله: "لكل غدٍ طعام" إطناب بالتذييل الجاري مجرى المثل، وفائدته توكيد المعنى المفهوم من الكلام السابق وتقريره في النفس، لاشتماله على معناه وهو في نفس الوقت كلام مستقل بمعناه ومستغنٍ عما قبله في فهمه، ومنه قول الشاعر:

والسَّعْيُ فـي الـرِّزقِ والأرزَاقُ قد قُسِمَتْ   بَغْـيٌ ألاَ إنَّ بَغْـيَ المـرءِ يَصْـرَعُهُ

فقول الشاعر: "ألا إن بغي المرء يصرعه" جاء تأكيداً للأول لاشتماله على معناه، وهو في ذات الوقت كلام مستقل بمعناه ومستغن عما قبله في فهمه ولهذا فهو إطناب بالتذييل جار مجرى المثل[1]

والثاني: وهو التذييل غير الجاري مجرى المثل: وهو الكلام الذي لا يستغني بمعناه، ولا يستقل بالإفادة دون ما قبله، أي لا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله كقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34)**﴾ [الأنبياء: 34]، فقوله تعالى: ﴿**أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (34)**﴾ [الأنبياء: 34]، تذييل لقوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ**﴾ [الأنبياء: 34]، وقد جاء هذا التذييل توكيداً لما قبله لاشتماله على معناه، ولكنه هو غير مستقل بالإفادة دون ما قبله، أي لا يفهم

---

(1) وفي البيت أيضاً إطناب بالاعتراض في قوله" والأرزاق قد قسمت" وفائدة الاعتراض التنبيه على أن الله سبحانه وتعالى قسم الأرزاق بين عباده، وأنه لا يليق بالناس في رأي الشاعر أن يسعوا في التماس أرزاقهم.

الغرض منه إلا بمعونة ما قبله، ولذلك يقال له: إطناب بالتذييل غير جار مجرى المثل. ونحو قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17)**﴾ [سبأ: 17]، فقوله تعالى: ﴿**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17)**﴾ [سبأ: 17]، "تذييل لقوله: ﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا**﴾ [سبأ: 17]، وهو غير جار مجرى المثل، لأنه غير مستغن في معناه عما قبله إذ المعنى: وهل نجازي ذلك الجزاء الذي ذكرناه إلا الكفور[1]، ومنه شعراءً قول ابن نُباته السَّعدي:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شيئاً أُؤَمِّلُهُ   تَرَكْتَني أصْحَبُ الدُّنْيَا بِلاَ أَمَلِ

فالشطر الثاني من البيت إطناب بالتذييل، وإذا تأملت هذا التذييل وجدته تأكيداً للشرط الأول لاشتماله على معناه، إلا أنه هو – أي الشطر الثاني – غير مستقل بمعناه، إذ لا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله ولهذا يقال له إنه غير جار مجرى المثل.

(1) إذ المراد ذلك الجزاء المخصوص، وهو إرسال سيل العرم وتبديل الجنتين على قول وقيل: إن المراد مطلق الجزاء، وهي المكافأة خيراً أو شراً، وعلى هذا يكون من الجاري مجري المثل.

المساواة

المساواة: هي تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض، أي هي ما ساوى لفظه معناه بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر(1)، وهي إحدى الطرق الثلاث التي يلجأ إليها البليغ للتعبير عن كل ما يجول بنفسه من خواطر وأفكار، فهو يسلك في أدءا معانيه تارة طريق الإيجاز، وتارة طريق الإطناب، وتارة طريقاً وسطا في التعبير بين الإيجاز والإطناب، هو طريق المساواة، وذلك على حسب ما تقتضيه حال المخاطب ويدعو إليه موطن الخطاب.

والمساواة هي الأصل المقيس عليه والدستور الذي يعتمد عليه، وهي فن من القول عزيز المثال لا يرتقي إلى ذراه إلا الأفذاذ لصعوبة المرتقى وجلال المقصد(2).

ومثال ذلك: قول رسول الله -ﷺ-: ((لا تزال أمتي بخير ما لم ترى الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً)). فالألفاظ هنا مساوية للمعاني تمام المساواة، وكل زيادة أو نقس في ألفاظ الحديث إخلال بالمعنى.

ومن الأمثلة التي تبين حقيقة المساواة أيضاً ما يلي:

1- قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21)﴾ [الطور: 21].

---

(1) انظر في هذا: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص179، والمصباح لبدر الدين بن مالك ص73، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ص153، والطراز ليحيى بن حمزة 322/3 والإيضاح للقزويني ص170-171.

(2) والمساواة يعتبرها بعضهم وسطاً بين الإيجاز والإطناب، وبعضهم يدمجها ولا يعدها قسماً ثالثاً للإيجاز والإطناب.

2- وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43].

3- وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 110].

4- وقال رسول الله -ﷺ-: ((الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات))

5- وقال طرفة بن العبد:

ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ[1]

6- وقال النابغة الذبياني:

فإنَّك كالليل الذي هو مُدْركي وإنْ خِلْتُ أنَّ الْمُنْتَأَى عَنْك وَاسِع[2]

هذه أمثلة للمساواة إذا تأملتها وجدت أن الألفاظ فيها بقدر المعاني ولا يستغني الكلام فيها عن لفظ منه، ولو حذف من أي مثال منها شيء لأخل بمعناه، ولو زيد فيه لفظ لجاءت الزيادة لغير فائدة، فالألفاظ في كل مثال مساوية للمعاني تمام المساواة، ولذلك يُسمّى أداء الكلام على هذا النحو "مساواة".

(1) من لم تزود: أي من لم تعطه زاداً، والزاد: طعام المسافر.

(2) المنتأى: موضع البعد وهو اسم مكان من النتأى عنه أي بعد: يخاطب النابغة الذبياني النعمان بن المنذر ويشبهه في حال سخطه بالليل في أنه يعم كل موطن، وذلك لسعة ملك النعمان وبسطه نفوذه فلا يفلت منه أحد.

علم البديع

مدخل إلى علم البديع

تتألف البلاغة العربية من علوم ثلاثة هي: المعاني، والبيان، والبديع. وميدان البلاغة الذي تعمل فيه علومها متضافرة هو: نظم الكلام وتأليفه على نحو يخلع عليه نعوت الجمال.

وإدراك سمات الكلام البليغ لا يتأتى إلا عن طريق الدرس والتأمل. ومن أجل هذا تبدو الحاجة إلى دراسة البلاغة. فهي تكشف للمتعلم عن العناصر البلاغية التي ترقى بالتعبير صعداً نحو الكمال الفني، كما تضع بين يديه الأدوات التي يستطيع بالتمرس بها والتدرب عليها أن يأتي بالكلام البليغ. وهي في الوقت ذاته جزء مكمل لثقافة الناقد والأديب.

نشأة البديع وتطوره:

يعرف ابن خلدون البديع بقوله: «هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق: إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك»[1].

عرف العرب في شعرهم كل الخصائص والأساليب الفنية التي تخلع عليه صفة الجمال والإبداع. وكان الشاعر منهم بحسه الفطري وعلى غير دراية منه بأنواع هذه الأساليب البيانية ومصطلحاتها البلاغية يستخدمها تلقائياً كلما جاش بنفسه خاطر وأراد أن يعبر عنه تعبيراً بليغاً.

---

(1) مقدمة ابن خلدون (ص: 1066).

ولقد اهتدى بعض الجاهليين إلى قيمة بعض هذه الأساليب وأثرها في تقدير الشعر وحظه من البلاغة.

ولعلنا نذكر ما كان يدور في أسواق العرب وأنديتهم من حوار أدبي، وقد أخذ علماء العربية بعد الإسلام يهتمون بعلم البلاغة ليستعينوا به في المحل الأول على معرفة أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري[1]: «اعلم أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ –بعد المعرفة بالله جل ثناؤه– علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من حلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها ...؛ لأن الإنسان إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه».

وأول ما نتلمس أوليات علم البديع عند الشاعر مسلم بن الوليد (صريع الغواني 208هـ)، فقد أولع بالبديع واشتهر بإجادته في شعره من مثل قوله في مدح يزيد بن مزيد:

تلقى المنية في أمثال عدتها … كالسيف يقذف جلموداً بجلمود

(1) كتاب الصناعتين (ص: 1 – 3).

تجـود بـالنفس إن ضـن الجـواد بهـا والجـود بـالنفس أقصـى غايـة الجـود

وقوله:

كأنـــه أجـــل يســـعى إلـــى أمـــل مـوف علـى مهـج فـي يـوم ذي رهـج

كـالموت مسـتعجلاً يـأتي علـى مهـل ينـال بـالرفق مـا تعيـا الرجـال بـه

فقد وضع مصطلحات لبعض الصور البيانية، والمحسنات اللفظية والمعنوية، مثل: الجناس والطباق.

وأشار الجاحظ (255هـ) إلى البديع بقوله: «والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان، والشاعر الراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار»(1).

وكلمة البديع عنده تعني الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية؛ إذ أنه لم يعن بوضع المصطلحات والقواعد، وإنما كان مهتماً بتقديم الأمثلة والنماذج البلاغية.

1- ولعل أول محاولة جادة في ميدان البديع هي محاولة ابن المعتز (296هـ).

فقد كان شاعراً مطبوعاً مقتدراً، سهل اللفظ، جيد القريحة، حسن البديع، وله بضعة عشر مؤلفاً في فنون شتى، وصل إلينا منها: ديوانه، وطبقات الشعراء، وكتاب البديع، وكتابه الأخير المسمى (البديع) ألفه رداً على من زعم من معاصريه: أن بشار بن برد ومسلم بن الوليد الأنصاري وأبا نواس هم السابقون إلى استعمال البديع في شعرهم.

---

(1) البيان والتبيين (4/ 55).

ولم يقتصر كتاب ابن المعتز على البديع الذي نعرفه اليوم بالمحسنات اللفظية والمعنوية، وإنما كان يشمل فنوناً أخرى من علم البيان والمعاني فهو يشتمل على خمسة أبواب: الاستعارة، والجناس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

ثم أتبع هذه الفنون الخمسة ثلاثة عشر فناً بديعياً هي:

1- الالتفات.
2- اعتراض كلام في كلام لم يتمم الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد.
3- الرجوع.
4- حسن الخروج من معنى إلى معنى.
5- تأكيد المدح بما يشبه الذم.
6- تجاهل العارف.
7- هزل يراد به الجد.
8- حسن التشبيه.
9- حسن التضمين.
10- التعريض والكناية.
11- الإفراط في الصفة (المبالغة).
12- إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له، (لزوم ما لا يلزم من القوافي).
13- حسن الابتداء.

هذا وليس في كتاب ابن المعتز ذكر لباحث قبله في قضايا البديع سوى الأصمعي الذي قال إن له بحثاً في الجناس، والجاحظ الذي قال إنه أول من سمى (المذهب الكلامي).

2- قدامة بن جعفر (337هـ):

ذكر في كتابه: (نقد الشعر) المحسنات البديعية، وعددها أربعة عشر نوعاً هي: الترصيع، والغلو، وصحة التقسيم، وصحة المقابلات، وصحة التفسير، والتتميم، والمبالغة، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والتكافؤ، والتوشيح، والإيغال، والالتفات.

وبذلك يكون قدامة قد اهتدى إلى تسعة أنواع جديدة من أنواع البديع.

3- أبو هلال العسكري:

الذي جعل الباب التاسع من كتابه: (الصناعتين) لشرح البديع وحصر أبوابه وفنونه، حيث بلغت عنده سبعة وثلاثين نوعاً، وظهرت الحقائق الآتية:

أ- جارى أبو هلال ابن المعتز في اعتبار (الاستعارة، والكناية) من أنواع البديع، مع أنهما في الواقع من علم البيان.

ب- كذا جارى ابن المعتز في اعتبار (الاعتراض) نوعاً بديعياً مع عده (التذييل) فناً بديعياً، مع أنهما من علم المعاني ومن أساليب الإطناب.

ج- جارى ابن المعتز وقدامة في أربعة أنواع بديعية اتفقا فيها وهي: الطباق، المبالغة، رد الأعجاز على الصدور، الالتفات.

د- أخذ مما انفرد به ابن المعتز ستة أنواع هي: الجناس، والرجوع، وتجاهل العارف، والمذهب الكلامي، وحسن الابتداءات، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والذي سماه (الاستثناء).

هـ- أخذ مما انفرد به قدامة تسعة أنواع هي: صحة المقابلة، وصحة التقسيم، وصحة التفسير، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والغلو، والترصيع، والإيغال.

و- اهتدى إلى ستة أنواع بديعية هي: التشطير، والمحاورة، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف.

ز- أورد ثمانية أنواع لم يذكرها الذين قبله ولم يبين من أين جاء بها، هي: التوشيح، والعكس والتبديل، والتكميل، والاستطراد، وجمع المؤتلف والمختلف، والسلب والإيجاب، والتعطف، والاشتقاق.

4- ابن رشيق القيرواني (456هـ):

ألف كتابه: (العمدة) في جزأين، يضمان نحو مائة باب، جمع فيها ما وقف عليه مما كتب عن صناعة الشعر، ووسائله البيانية والبديعية، ويلاحظ عليه أنه أفرد أبواباً لمباحث البيان، وأخرى للمحسنات البديعية، وفي ذلك ما يوحي بأنه قد بدأ يستقر في أذهان النقاد ورجال البلاغة أن البيان شيء والبديع شيء آخر.

أما أنواع البديع التي أوردها في كتابه: (العمدة) فتبلغ تسعة وعشرين، منها: عشرون نوعاً سبقه إليها ابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري، وتسعة لم يرد ذكرها عند رجال البديع السابقين، وهي: التورية، والترديد، والتفريع، والاستدعاء، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه، والاطراد، والاشتراك، والتغاير.

وهي لا تعدو احتمالين:

- الأول: أن يكون قد أخذها عن بعض المتقدمين غير ابن المعتز وقدامة وأبي هلال العسكري.
- والثاني: أنه قد زادها من عند نفسه ولم يشر إلى ذلك.

ويلاحظ أن لابن رشيق عناية بالمصطلحات، وإشارة إلى تباين تسمياتها لدى العلماء.

5- عبد القاهر الجرجاني (471هـ):

اشتهر بكتابه: (دلائل الإعجاز) الذي وضع فيه نظرية علم المعاني، وكتابه: (أسرار البلاغة) الذي وضع فيه نظرية علم البيان، والمتصفح لكتابيه يرى أنه لم يحاول فيهما وضع نظرية في علم البديع، كما فعل بالنسبة لعلمي البيان والمعاني، ومع ذلك فقد تكلم في (أسرار البلاغة) عن ألوان من البديع هي: الجناس، والسجع، وحسن التعليل، مع الإشارة أحياناً إلى الطباق والمبالغة.

وحديثه عن هذه المحسنات ليس لأغراض بديعية بمقدار ما هو لأغراض بيانية؛ إذ كان يحاول الكشف عن المعاني الإضافية التي تشتمل عليها الأساليب البيانية، مؤكداً أن الجمال لا يرجع إلى جمال الألفاظ من حيث هي، وإنما يرجع إلى ترتيب المعاني في الذهن ترتيباً يؤثر في النفس، ويضرب لذلك مثلاً من أمثلة الجناس، وهو قول أبي الفتح البستي:

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أو دعاني

ويعلق عليه بقوله: «قد أعاد الشاعر عليك اللفظ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فبهذه السريرة صار التجنيس، وخصوصاً المستوفي منه المتفق في الصورة، من حلى الشعر، ومذكوراً في أقسام البديع»[1].

---

(1) أسرار البلاغة (ص: 4 – 5).

وعن السجع يورد عبد القاهر أمثلة للحسن منه قول القائل: «اللهم هب لي حمداً، وهب لي مجداً، فلا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال»، ومثل قول الفضل بن عيسى الرقاشي: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً»، ثم يذكر أنه ليس هنا لفظ اجتلب من أجل السجع، وترك له ما هو أحق بالمعنى منه.

وعلى ذلك فالجناس أو السجع عنده لا يكتسب صفة القبول أو الحسن حتى يكون المعنى هو الذي طلبه أو استدعاه، بحيث لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، فالمعنى هو الذي يقود المتكلم وليس العكس.

6- الزمخشري:

له مؤلفات قيّمة في النحو واللغة والأدب، إلا أن أهم كتبه هو: (الكشاف) الذي قدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، طبق فيه كل ما اهتدى إليه الجرجاني من قواعد المعاني والبيان، وأضاف إضافات جديدة وفق إليها من خلال وقفاته في تفسير القرآن.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن المتكلمين منذ القرن الخامس من الباقلاني إلى عبد القاهر ممن عنوا بإعجاز القرآن قد نحوا البديع عن مباحث أسرار البلاغة في القرآن الكريم؛ لأنه في رأيهم لا يدخل في بحث الإعجاز القرآني، نظراً لأن كثيراً من فنونه مستحدث، وما ورد في القرآن إنما جاء دون قصد أو تكلف، وهذا ما جعل الزمخشري لا يقف طولاً أمام ما ورد في القرآن من فنون بديعية، ومع ذلك فإن تفسيره لا يخلو من عدد من الوقفات البديعية، فقد أشار إلى الالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والطباق، والمشاكلة، واللف والنشر، ومراعات النظير، والتناسل، والتقسيم، والاستطراد، والتجريد.

7- **(الوطواط) رشيد الدين العمري (573هـ):**

ألّف في البلاغة الفارسية كتاباً سماه: (حدائق السحر في دقائق الشعر)، والكتاب محاولة دقيقة لتطبيق فنون البديع العربي على الأدب الفارسي مستعيناً بأمثلة وشواهد من الشعر والنثر في الأدبين العربي والفارسي، وهذا ما يسمى بالأدب المقارن.

8- **أسامة بن منقذ:**

له تصانيف عديدة في فنون الأدب، منها: كتاب القضاء، وكتاب الشيب والشباب، وكتاب ذيل يتيمة الدهر للثعالبي، وكتاب تاريخ أيامه، وكتاب في أخبار أهله، وكتاب البديع في نقد الشعر، الذي يشتمل على خمسة وتسعين باباً ذكر فيها كثيراً من المحسنات البديعية.

- **وفي القرن السابع الهجري نلتقي بسبعة علماء ممن أولوا البديع وفنونه عناية خاصة، منهم:**

1- **الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (606هـ):**

له مصنفات كثيرة في تفسير القرآن الكريم، والفقه، وعلم الكلام، والطب، والكيمياء، وله في البلاغة كتابه المشهور: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز).

وبالإضافة إلى ذلك سرد الرازي في كتابه طائفة من فنون البديع، استمدها من كتاب: (حدائق السحر في دقائق الشعر) للوطواط، ومما نقله عن الوطواط تجنيس الخط نحو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)﴾ [الكهف: 104]، كما نقل عنه ما سماه (المصحّف)، وهي كلمات إن تغير نقطها كانت قدحاً وهجاء بعد أن كانت مدحاً وثناء.

كذلك عرض لما سماه ابن المعتز باسم (الإعنات)، وهو لزوم ما لا يلزم، وصور ما يحدث بسبب ائتلاف كلمتين.

2- السكاكي (626هـ):

سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد، له مصنفات كثيرة أهمها: (مفتاح العلوم) الذي قسمه إلى ثلاثة أقسام أساسية: قصر القسم الأول منها على علم الصرف، وما يتصل به من الاشتقاق بأنواعه، كما جعل القسم الثاني لعلم النحو، أما القسم الثالث فخص به علم المعاني وعلم البيان، وملحقاتهما من البلاغة والفصاحة، والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، وأفرد مبحثاً خاصاً لكل من علوم المنطق والعروض والقافية.

وشهرة السكاكي ترجع إلى القسم الخاص بعلوم البلاغة، ومصدر هذه الشهرة: أنه أعطى لأصول العلوم التي أفرد لها القسم الثالث من كتابه الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء يدرسونها ويشرحونها.

وأكثر من أفاد منهم السكاكي هم: الجرجاني، والزمخشري، والرازي، وأما فيما يخص البديع فلم ينظر إليه مستقلاً بذاته، وإنما ألحقه بعلمي المعاني والبيان، ومع ذلك فهو أول من قسّم البديع إلى محسنات معنوية ولفظية، واقتصر على ستة وعشرين نوعاً، لعلها كانت في نظره أهم من غيرها، كما أنه لم يزد على المحسنات جديداً من عنده.

3- ضياء الدين بن الأثير (637هـ):

هو: أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني، وهو شقيق مجد الدين بن الأثير من رجال الحديث، وشقيق عز الدين بن الأثير صاحب كتاب (الكامل في

التاريخ)، وأهم مؤلفات ضياء الدين: (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) وهو مقسم إلى مقدمة في علم البيان، وإلى مقالتين: الأولى في الصناعة اللفظية، والثانية في الصناعة المعنوية.

ويقول علماء البيان: «إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام».

ولم ينظر إلى المحسنات البديعية كعلم قائم بذاته، وبالتالي لم يدرسها دراسة منفصلة عن البيان، وإنما نراه يتوسع في مفهوم علم البيان، بحيث يشمل مباحث علم المعاني والبديع، مجارياً بذلك مدرسة الجاحظ التي تعتبر كلمة البيان مرادفة لكلمة البلاغة.

وعنده أن المحسنات اللفظية هي صناعة تأليف الألفاظ، وقد ساق منها في مقالته الأولى ثمانية أنواع، وفي مقالته الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية تكلم ابن الأثير بإسهاب عن المعاني، وقد دعاه ذلك إلى الحديث عن بعض المحسنات البديعية المعنوية.

وأشار إلى اختلاف البلاغيين في بعض مصطلحات الفنون البديعية وألقابها، ولا يفوته أن يشير إلى ولع بعض الكتاب والشعراء بالمحسنات البديعية، وتفننهم في اختراع صور منها خرجت بالكلام عن موضوع علم البيان، كما فعل الحريري في مقاماته.

كما انتقد بشدة تلك الأنواع المتكلفة من البديع قائلاً: «وكل ذلك وإن كان له معنى يفهم إلا أنه ضرب من الهذيان، والأولى به وبأمثاله أن يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة، لا بدرجة الفصاحة والبلاغة»[1].

---

(1) المثل السائر (ص: 308)، والشعبذة والشعوذة: خفة في اليد وأخذ كالسحر يرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين.

4- التيفاشي المغربي (651هـ):

له مؤلف في علم البديع أحصى فيه سبعين محسناً من المحسنات البديعية.

5- زكي الدين بن أبي الأصبع المصري (654هـ):

له ثلاثة كتب هي: كتاب (الأمثال)، وكتاب (تحرير التحبير)، وكتاب (بديع القرآن).

أما كتاب (الأمثال) فيتضمن ما جمعه ابن أبي الأصبع من أمثال أبي تمام، وأمثال أبي الطيب المتنبي، وما ولّده أبو الطيب من أمثال أبي تمام، وصدر الجميع بما وقع في الكتاب العزيز من الأمثال، وزاد على ذلك أمثال دواوين الإسلام والحماسة، وأمثال أبي نواس، وختم الجميع بأمثال العامة، وبما سار من أمثال الطغرائي في لامية العجم.

وأحصى في كتابه (تحرير التحبير) مائة وعشرين نوعاً من المحسنات البديعية، منها: عشرون من زياداته هو، والباقي مما جمعه البلاغيون قبله.

وعرض في كتابه الثالث (بديع القرآن) لما في القرآن من محسنات بديعية بلغ بها مائة محسّن وثمانية.

ومما يلاحظ عليه أنه أدخل بعض مباحث المعاني في البديع، وخاصة صور الإطناب، كالتكرار والتفصيل، والتذييل، والاستقصاء، والإيضاح، والبسط، والإيجاز.

6- علي بن عثمان الأربلي (670هـ):

نظم قصيدة مدح من ستة وثلاثين بيتاً، في كل بيت منها نوع من أنواع البديع التي كانت شائعة في عصره. وهي المحاولة الأولى لنظم فنون البديع في قصائد

تعليمية، وإن كان هناك من سبقه في حشد أنواع البديع في منظومة شعرية كالزواوي (628هـ).

7- بدر الدين بن مالك (686هـ):

هو: بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك الطائي الأندلسي أصلاً الدمشقي داراً، وأبوه الشيخ جمال الدين بن مالك العالم النحوي صاحب الألفية المشهورة في النحو.

وبدر الدين له كتاب (المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع)، وهو تلخيص لكتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي، وقد جرّد كتابه من تعقيدات السكاكي المنطقية والكلامية والفلسفية، كما أدخل عليه بعض التعديلات، وأهمها: نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل البيان إلى فاتحة مختصرة.

وقد جرى على رأي السكاكي في أن علمي المعاني والبيان يرجعان إلى البلاغة، وأن المحسنات البديعية ترجع إلى الفصاحة، كما اعترف بأن هذه المحسنات توابع لعلمي المعاني والبديع، ولكنه مع ذلك جعلها علماً مستقلاً بذاته سماه: «علم البديع»، وبذلك مهد الطريق أمام البلاغة لتصبح متضمنة علوماً ثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

وتوسع بدر الدين في المحسنات البديعية فذكر منها: أربعة وخمسين نوعاً، على حين ذكر السكاكي منها: ستة وعشرين فقط.

وانفرد بجعل المحسنات البديعية قسمين: قسماً يعود إلى الإفهام والتبيين، مثل: المذهب الكلامي، والتتميم، والتقسيم، والاحتراس، والتذييل، والاعتراض، والتجريد، والمبالغة، وقسما يعود إلى التزيين والتحسين، مثل: اللف والنشر، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق.

- **أما في القرن الثامن فنرى:**

1- العلوي يحيى بن حمزة (749هـ):

صاحب كتاب: (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)، والذي يقع في ثلاثة أجزاء، والكتاب بحث في قواعد البلاغة بأنواعها الثلاثة، وكل ما ذكره عن علم البديع قد استوحاه في الواقع من كتاب: (المصباح في المعاني والبيان والبديع) لبدر الدين بن مالك.

2- محمد بن عمر التنوخي (749هـ):

صاحب كتاب (الأقصى القريب في علم البيان)، وهو يعني بالبيان البلاغة عامة، وينحى منحى ابن الأثير؛ إذ يعد البلاغة وحدة عضوية مترابطة، رغم أنه يخالفه في طريقة البحث والمعالجة؛ فيعتمد على النحو والمنطق، على حين كان ابن الأثير يعتمد في بحثه على الذوق والمنطق، على أن حظ البديع من كتاب التنوخي ضئيل، فهو يتكلم عن الاشتقاق، والتكرار، والتقسيم، والمبالغة، والتضمين، والاستدراج، والسجع، ولزوم ما لا يلزم، والجناس ...

3- ابن قيم الجوزية (751هـ):

صنّف وألّف كتبا كثيرة، منها: كتاب (شمس الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان)، أشار في مقدمته لعلم البيان؛ لأنه يعين على معرفة إعجاز القرآن، ويتحدث عن بعض مباحث البيان من حقيقة ومجاز واستعارة وتمثيل، ويتطرق إلى المحسنات البديعية المعنوية، فيحصي منها نحو ثمانين نوعاً، كما تكلم عن المحسنات البديعية اللفظية، ويذكر منها: أربعة وعشرين نوعاً.

4- صفي الدين الحلي (750هـ):

له قصيدة في مدح الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- تبلغ مائة وخمسة وأربعين بيتاً من بحر البسيط، تضمن كل بيت من أبياتها محسناً من محسنات البديع، وسماها: (الكافية البديعية في المدائح النبوية)، وألّف عليها شرحا سماه: (النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية)، وفي مقدمة الشرح نبذة عمن سبقه إلى التأليف في البديع، وهو أول من نظم بديعية مكتملة.

5- ابن جابر الأندلسي (780هـ):

له بديعية على قافية الميم من بحر البسيط تقع في مائة وسبعة وعشرين بيتاً، نظمها على طريقة بديعية صفاء الدين الحلي، واشتملت على نحو ستين محسناً، مقدماً المحسنات اللفظية على المعنوية على طريقة بدر الدين بن مالك.

6- عز الدين الموصلي (789هـ):

وله أيضاً بديعية مشهورة في مدح الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- في مائة وخمسة وأربعين بيتاً، عارض بها بديعية الحلي، وزاد عليه ذكر اسم النوع البديعي في كل بيت، وله بديعية أخرى لامية على وزن قصيدة كعب بن زهير.

7- ابن حجة الحموي (837هـ):

كان إماماً عارفاً بفنون الأدب، وله مصنفات كثيرة منها: (بروق الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم)، و(كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام)، و(ثمرات الأوراق في المحاضرات)، و(خزانة الأدب)، و(ديوان شعر بديع).

وله بديعية مشهورة في مدح الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- تبلغ مائة واثنين وأربعين بيتاً، وقد وضع لها شرحا مطولاً في (467) صفحة أسماه: (خزانة الأدب)، أودعها الكثير من علمه ومعارفه.

8- السيوطي (911هـ):

وله أيضاً بديعية سماهاً: (نظم البديع في مدح خير شفيع)، وله عليها شرح، ولكنها لم تنل من الشهرة ما نالته غيرها من بديعيات.

9- عائشة الباعونية (922هـ):

أثنى عليها كثير من الأدباء، وهي شاعرة ذات شعر بديع، ولها في مدح الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- بديعية فريدة في مائة وثلاثين بيتاً، أطلقت عليها اسم: (الفتح المبين في مدح الأمين)، ومطلعها:

فـي حسـن مطلـع أقمـاري بـذي سـلم أصـبحت فـي زمـرة العشـاق كـالعلم

10- ومن أصحاب البديعيات أيضاً: صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني (1117هـ) في حيدر أباد.

11- وممن عاصر صدر الدين واشتهر في هذا الميدان الشيخ: عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (1143هـ) له بديعيتان.

12- والبيروتي (1226هـ).

13- والساعاتي (1298هـ).

14- والشيخ طاهر الجزائري (1341هـ).

وهو آخر من عرف بتعاطي هذا الفن، فقد نظم قصيدة بديعية، وضع لها شرحاً أطلق عليه اسم: (بديع التلخيص وتلخيص البديع).

وقد كتبت رسالة ماجستير في البديعيات حوت دراسة وافية عن هذا الفن، وهي بعنوان للدكتور علي أبو زيد.

فنون علم البديع

عرفنا أن ابن المعتز هو أول من قام بمحاولة علمية جادة في سبيل تأسيس علم البديع وتحديد مباحثه التي كانت من قبل مختلطة بمباحث علم المعاني وعلم البيان، فألف كتابه: (البديع)، وضمّنه ثمانية عشر فناً من فنون البديه.

ثم تبعه قدامة بن جعفر، وزاد في هذا الفن تسعة أنواع جديدة، وجاء أبو هلال العسكري فأضاف إليها حتى بلغت عنده سبعة وثلاثين نوعاً، ثم جاء ابن رشيق القيرواني فزاد على من تقدموه تسعة أنواع لم يرد لها ذكر عندهم.

وهكذا أخذت فنون البديع تنمو وتتكاثر على تعاقب الأجيال والعصور حتى بلغت في القرن الثامن الهجري عند الشاعر صفي الدين الحلي مائة وخمسة وأربعين محسناً بديعياً.

وهذه المحسنات يقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوها عن التعقيد المعنوي.

والمحسنات البديعية ضربان: معنوي يرجع إلى تحسين المعنى أولاً وبالذات، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً، وضرب لفظي يرجع إلى تحسين اللفظ أصلاً، وإن تبع ذلك تحسين المعنى؛ لأن المعنى إن عبّر عنه بلفظ حسن استتبع ذلك زيادة في تحسين المعنى.

وليس من غرضنا هنا التوسع في دراسة المحسنات البديعية إلى حد الإلمام بها جميعها، وإنما الغرض هو التركيز على أهم هذه المحسنات للتعرف عليها وبيان أثرها في تحسين الكلام لفظا ومعنى.

مفهوم علم البديع:

أولاً في اللغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: أبدع الشيء يبدعه بدعاً وابتدعه: أنشأه وبدأه.

والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي كتاب الله الكريم: ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: 9].

والبدعة: الحدث، وكل محدثة، والبديع: المحدث العجيب، والبديع: المبدع.

وابتدعت الشيء: اخترعته لا على مثال.

والبديع من أسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء.

ولا يخرج معنى البديع في المعجمات الأخرى عن معنى الجدة والبراعة، وهي من الألفاظ التي وردت في الشعر القديم، فقال عدي بن زيد:

فلا أنا بدع من حوادث تعتري رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعدِ

وقوله تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [البقرة: 117].

أما مصطلح البديع بمعناه الفني، فقد ذكر الجاحظ أن الرواة أول من أطلقه على المستطرف الجديد من الفنون الشعرية، وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في أشعارهم فتزيدها حسناً وجمالاً.

يقول الأصفهاني: إن الشاعر العباسي مسلم بن الوليد المتوفى (208هـ) كان أول من أطلق هذا المصطلح، يقول: وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف

بالبديع، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم: أبو تمام، فإنه جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه.

وكان المولدون من شعراء العصر العباسي قد أكثروا في أشعارهم من الصور البيانية التي سميت البديع، بسبب اتصالهم بالأمم الأخرى، وقد حمل لواء هذا الاتجاه بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو تمام، وقد تباهوا بهذا الفن وأنهم السبّاقون إليه، مما حدا بالخليفة العباسي الشاعر عبد الله بن المعتز المتوفى (296هـ) إلى أن يؤلف كتاب البديع، وليعرف أن المولدين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع، ولكنهم أكثروا فيه.

ولعل الجاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره وأطلقه على الفنون البلاغية المختلفة، وبمعنى: إن الجاحظ لم يميز بين علم البديع وعلوم البلاغة الأخرى، والمباحث المتعلقة فيها.

ابن المعتز: نظر ابن المعتز إلى علم البديع كما نظر إليه الجاحظ، وألف كتاب البديع، وهو عنده خمسة أبواب: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد الإعجاز على ما تقدمها، والمذهب الكلامي، وحسب الفنون التي ذكرها تشمل موضوعات البلاغة المختلفة أي مصطلح البديع عنده كان له دلالة واسعة في القرن الثالث الهجري.

قدامة بن جعفر، المتوفى (337هـ)، واستطاع إضافة أنواع كثيرة من البديع مما لم يذكره ابن المعتز، ولم يسمها بديعاً، وإنما هي من محاسن الكلام ونعوته.

أبو هلال العسكري المتوفي (395هـ) لم يميز العسكري أيضاً بين مباحث علوم البلاغة، إلا أنه زاد سبعة فنون في البديع.

ومن العلماء العرب القدامى الذين خاضوا في هذا الموضوع القاضي الزجاجي، صاحب كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، وأبي بكر الباقلاني، صاحب كتاب (الإعجاز القرآني)، كما اهتم ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب (العمدة) بالبديع وفرّق بينه وبين المخترع، وأدخل في البديع المجاز والاستعارة.

عبد القاهر الجرجاني المتوفى (471هـ)، لم يختلف في جهوده عمن سبقه، والبديع عنده من فنون البلاغة المختلفة، فضلاً عن خلطه بين البيان والبلاغة والفصاحة، بمعنى أن مصطلح البديع عنده خمسة وتسعين فناً بلاغياً، ولم يقف على تعريف لعلم البديع أو يتحدث عنه.

السكاكي المتوفى (626هـ)، صاحب كتاب (مفتاح العلوم)، إذ تمكن من التقرب إلى وضع الحدود الفاصلة بين مباحث علوم البلاغة العربية الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، مشيراً إلى تقسيم مباحث البديع، وهي عنده قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ.

أما الخطيب القزويني المتوفي (739هـ)، صاحب كتاب (الإيضاح)، وقد فصل الخطيب علم البديع فصلاً تاماً عن البلاغة التي حصرها في علم المعاني والبيان، ووضع التعريفات النهائية لكل منها، وحدد مصطلح أو تعريف علم البديع أنه علم يعرف به الوجوه في تحسين الكلام رعاية تطبيقية على مقتضى الحال وفصاحته التي يورد فيها وضوح الدلالة، كما يرجع إليه تقسيم مباحث البديع، فهو عنده ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وآخر يرجع إلى اللفظ.

فقد تابع السكاكي في هذا التقسيم وزاد عليه.

البديعيات:

شهد القرن السابع للهجرة لوناً جديداً من التأليف في البلاغة هو البديعيات، وهي: قصائد تتضمن فنوناً بلاغية، ومعظمها في مدح الرسول الكريم –عليه الصلاة والسلام–، من البحر البسيط، وعلى روي الميم.

والبديعيات كثيرة جداً، وقد اختلف الباحثون في نشأتها، وأرجعها بعضهم إلى ابن جابر الأندلسي، وبعضهم إلى صفي الدين الحلي، ومن هذه البديعيات: بديعية صفي الدين الحلي (750هـ)، وهي في مائة وخمسة وأربعين بيتاً، ومطلعها:

إن جئـت سَـلْعاً فسـلْ عـن جيـرة العلـم   واقـرَ السـلام علـى عُـرْبٍ بـذي سَـلَمِ

وبديعية ابن جابر الأندلسي (780هـ)، وهي: في مائة وسبعة وعشرين بيتاً، ومطلعها:

بِطَيْبَــةَ انْــزِل ويَمِّــم سَــيِّدَ الأمَــمِ   وانــثم لَــهُ المَـدْح وانْثُـر طَيِّـبَ الكَلِـمِ

وبديعية عز الدين الموصلي، وبديعية ابن حجة الحموي، وبديعية جلال الدين السيوطي، وبديعية عائشة الباعونية (922هـ).

ونظم غيرهم البديعيات، وذلك يدل على الاهتمام العظيم بفنون البديع في المدة المتأخرة، وإذا كان فيها إسراف في الصنعة والتفنن في إيجاد أنواع بديعية؛ فإن الجهد المبذول فيها كبير يدل على ما كان يتمتع به أولئك الشعراء من صبر على النظم واطلاع على اللغة، وهي تصور حياة الأدب في تلك الفترة التي جنح فيها الشعر إلى العناية بألوان البديع.

أولاً/ المحسنات اللفظية:

المحسنات اللفظية كثيرة، وسوف نقف على أهمها:

الجناس

يسميه بعضهم التجنيس، وهناك تعريفات كثيرة، ولكنها تتفق في أن الجناس هو: أن تتفق اللفظتان في وجه من الوجوه، ويختلف معناهما.

وللجناس أقسام كثيرة، ولكنه بصورة عامة ينقسم إلى جناس تام، وجناس ناقص.

الجناس التام:

وهو: أن تتفق الكلمتان في لفظهما، ووزنهما، وحركاتهما، ولا يختلفان إلا من جهة المعنى، كقول الحق سبحانه: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ**﴾ [الروم: 55]، فالساعة الأولى: القيامة، والساعة الثانية: واحدة الساعات، ومنه قول الشاعر أبي تمام:

فأصبحت غُرَرُ الأيام مشرقةً بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الأولى: يقصد بها غرة الوجه، والثانية: مأخوذة عن غرة الشيء، أي: أكرمه، وقوله:

من القوم جعد أبيض الوجه والنّدى وليس بنان يجتدى منه بالجعد

فالجعد الأولى تعني: السيد الكريم، والأخرى يوصف بها البخيل، ومنه قول الشاعر:

كل الأمور إذا ضاقت لها فرج إلا أموري إذا ضاقت فمن فرج

ومنه:

كـأنهم علـى ظهـور الخيـل نبـت ربـا   مـن شـدة الحـزم لا مـن شـدة الحـزم

الجناس الناقص:

وهو أنواع عدة، ومنه قول الرسول الكريم –عليه الصلاة والسلام–: ((اللهم كما حسنت خلفي، حسن خُلُقي))، فهاتان اللفظتان متساويتان في التركيب، مختلفتان في الوزن والمعنى، ومن الجناس الناقص قول البحتري:

صـدَق الغُـراب لقـد رأيـت حمـولَهم   بـالأمس تغـرب عـن جوانـب غـرّب

فالجناس بثلاثة أشياء، هي: الغراب، وتغرب، وغرّب، ومنه قبول الشاعر:

يَمُـدُّون مـن أيـدٍ عَـواصٍ عَواصِـمٍ   تَصُـولُ بأسْـيافٍ قَـوَاضٍ قَواضِـبِ

وحسن الجناس وقيمته: أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني، وإلا جاء ثقيلاً لا يقبله الذوق السليم.

رد الأعجاز على الصدور

ومن المحسنات اللفظية رد الأعجاز على الصدور، وهو في النثر: أن يرجع أحد اللفظين المتجانسين المكررين في آخر الجملة على أولها، كقوله تعالى: ﴿**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**﴾ [الأحزاب: 37]، وقوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10)**﴾ [نوح: 10].

أما في الشعر فهو: أن يكون أحد اللفظين آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول أو حشوه أو آخره، وسماه ابن رشيق القيرواني وابن القيم الجوزية: (التصدير)، وهو وارد في الشعر والنثر.

ويأتي على ضروب هي:

أ- أن يكون الصدر والعجز متفقين في الصورة، كقول الشاعر:

سَريعٌ إلى ابْنِ العَمِّ يلْطِمُ وَجهَهُ ولَيسَ إلى داعي النَّدى بِسَريعِ

ب- أن يتفقا صورة ويختلفا معنى، كقول الشاعر:

يسار من سجيتها المنايا ويمنى من عطيتها اليسار

فإن اليسار الأولى تعني: اليد الجارحة، والثانية: من اليسر عكس العسر

ج- أن يتفقا في المعنى، ويختلفا في الصورة، كقول الشاعر:

واستبدّت مرّة واحدة إنّما العاجز من لا يستبدّ

وقول آخر:

تمنيت أن ألقى سليماً ومالكاً على ساعة تنسي الحليم الأمانيا

د- أن يتفقا في الاشتقاق ويختلفا في الصورة، كقول الشاعر:

ضَـــرَائِبُ أَبْـــدَعْتَهَا فِـــي السَّـــمَاحِ فَلَسْـــنَا نَـــرَى لَـــكَ فِيْهَـــا ضَـــرِيْبَا

وقال جرير:

أَخَلَبْتِنـــــا وصـــــددتِ أُمَّ مُحَلِّـــــمٍ أفتجمعـــــينَ خِلابـــــةً وصُـــــدودا

هـ- أن لا يلتقيان في الاشتقاق ويتفقا في الصورة، كقول الشاعر:

ولاحَ يلْحَـــى علـــى جـــرّي العِنـــانَ إلـــى ملْهًـــى فسُـــحْقاً لـــهُ مـــن لائِـــحٍ لاحِ

فلاح الأولى ماضي يلوح، بمعنى: ظهر، ولاح في آخر البيت: اسم فاعل من لحاه، بمعنى: أبعده، فهما متجانستان لفظاً، مختلفتان معنى، يجمعهما الاشتقاق.

شروطه:

هذا الفن ينبغي أن يراعى فيه جانب المعنى كأي محسن آخر، وإلا أصبح ثقيلاً لا يقبله الذوق، ولا ترتاح له النفس، وهو في أشكاله المختلفة يجب أن يرعى فيه ما يراعي في الجناس، وأن يكون المعنى هو الذي يتطلبه ليؤدي الغاية التي يسعى إليه المتكلم، ولاسيما الشاعر الذي تعنيه كثيراً موسيقى اللفظ وإيحاؤه.

السجـع

هو: تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد، وهذا معنى قول السكاكي: «الإسجاع في النثر كما القوافي في الشعر».

والسجع من أوصاف البلاغة في موضعه، وعند سماحة القول فيه، وأن يكون في بعض الكلام لا جميعه؛ لأنه في الكلام كمثل القافية في الشعر.

ورد في كتاب الله وفي كلام العرب، إلا أن المتأخرين بالغوا فيه وأكثروا منه من دون مسوغ؛ لذلك أصبح ثقيلاً لا يقبله الزرق.

وقد قُسّم إلى أقسام عدة، سنقف عند تقسيم المتأخرين له، كما يأتي:

السجع المطرّف:

وهو: أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه أو في بعضه بأسجاع متزنة بزنة عروضية، ولا محصورة في عدد معين، بشرط أن يكون روى الأسجاع روي القافية، كقول الله –تبارك وتعالى–: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)**﴾ [نوح: 13–14].

السجع الموازي:

وهو: أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والروي، كقوله تعالى: ﴿**فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)**﴾ [الغاشية: 13–14].

السجع المشطر:

وهو: أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقانتي النصف الأخير، وهذا القسم مختص بالشعر، كقول أبي تمام:

تـــدبير معتصـــم، بـــالله منـــتقم   لله مرتغـــــب، فـــــي الله مرتقـــــب

السجع المرصّع:

وهو: مقابلة كل لفظة بلفظة على وزنها ورويّها، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)**﴾ [الانفطار: 13-14].

وقد وضع ابن الأثير للكلام المسموع أربع شروط، هي:

1- اختيار مفردات الألفاظ على الوجه الصحيح، وذلك أن تكون جيدة.
2- اختيار التركيب الحسن.
3- أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى، وليس المعنى تابعاً للفظ.
4- أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها.

ملحوظة مهمة: لا يجوز إطلاق مصطلح القافية على الكلمة التي تختم بها الآية القرآنية، بل تسمى فاصلة، وكلمة قانية مختصة بالشعر، قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ [فصلت: 3]، كما لا تسمى.

الترصيع

وهو مأخوذ من ترصيع العقد، وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد من اللآلئ مثل ما في الجانب الآخر، وهو من صفات الوزن عند قدامة بن جعفر.

وقد عرفه ابن الأثير بقوله: «أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية».

ومن أمثلة الترصيع قول الشاعر:

فمكـــــارمٌ أوليتهـــــا متبرعًـــــا وجـــــرائم ألغيتهـــــا متورعًـــــا

فـ (مكارم) إزاء (جرائم) و(أوليتها) إزاء (ألغيتها) و(متبرعاً) إزاء (متورعاً).

ومنه قول الخنساء:

حــامي الحقيقــة، محمــود الخليفــة مهــدي الطريقــة، نفــاع وضــرار
جــواب قاصــية، جــزاز ناصــية عقـــاد ألويـــة، للخيـــل جـــرار

ويسمى هذا النوع من الترصيع بالمضارعة؛ إذ ذكر ذلك الباقلاني صاحب كتاب (إعجاز القرآن).

وقد يأتي الترصيع مع التجنيس، كقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (3) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (4)**﴾ [النازعات: 3-4].

وقد أولع الشعراء بمثل هذا وأكثروا منه، ومنهم من اقتنع بالترصيع في بعض أطراف الكلام، ومنهم من بنى كلامه كله عليه، كقول ابن الرومي:

أبـــــــدانهن ومـــــــا لبســـــــــــ ـــــن مـــن الحريـــر معـــاً حريـــر

أردانهـــــــن ومــــــا مســــــــــــ ـــــن مـــن العبيـــر معـــاً عبيـــر

وهذا الفن من البديع يكون حسناً إذا توافر له في البيت موضع يليق به؛ لأنه ليس في كل موضع يحسن، ولا على كل حال يصلح.

التصريع

وهو في الشعر بمنزلة السجع في الفصلين من الكلام المنشور، وفائدته في الشعر: أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعرف قافيتها، وهو أدخل في باب السجع.

وقد قسمه ابن الأثير إلى مراتب، وتابعه العلوي اليماني في هذا التقسيم كما يأتي:

1- **أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه في فهم معناه، غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه، ويسمى التصريع الكامل، كقول امرئ القيس:**

أفاطِمَ مهلًا بعضَ هذا التَّدَلّلِ وَإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجملي

فنلحظ أن الشطر الأول من البيت مستقل في معناه، وكذا قول المتنبي:

إذا كان مدْحٌ فالنّسيبُ المقدَّمُ أكلُّ فَصيحٍ قال شِعْراً متيَّمُ

2- **أن يكون الشطر الأول مستقل بمعناه غير محتاج إلى الذي يليه؛ فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به، كقول امرئ القيس:**

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ بِسقطِ اللِّوى بينَ الدَّخولِ فحَوْملِ

فنلحظ أن الشطر الأول غير محتاج للثاني لفهم المعنى، لكنه لما جاء الثاني صار مرتبطاً به، ومنه قول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ هو أوَّلٌ وهي المحلُ الثاني

3- أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع صاحبه، ويسمى التصريع الموجه، كقول الشاعر:

مــن شُــرُوط الصــبوح فِــي المهرجــان   خفَّــة الشَّــرْبِ مــع خلــو الْمَكَــان

فإن هذا البيت يجعل مصراعه الأول ثانياً ومصراعه الثاني أولاً.

4- أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى: التصريع الناقص، كقول المتنبي:

مَغَــانِي الشَّــعبِ طَيبَــاً فــي المَغَــانِي   بِمَنزِلَــــةِ الرَّبِيــــعِ مِــــنَ الزَّمــــانِ

فإن المصراع الأول، أو الشطر الأول لا يستقل بنفسه في فهم معناه دون أن يذكر الشطر الثاني.

5- أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة وسطاً وقافية، ويسمى: التصريع المكرر، وهو قسمان:

- الأول: أقرب حالاً من الآخر، ويكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها، كقول عبيد بن الأبرص:

وكُــــــلُّ ذِي غَيْبَــــــةٍ يَــــــؤُوبُ   وغائِــــــبُ المَــــــوْتِ لا يَــــــؤُوبُ

- الثاني: أن يكون التصريح بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها، كقول أبي تمام:

فَتًــــى كــــانَ شــــرْباً لِلْعُفــــاةِ وَمَرتَعــــاً   فَأَصْــــبَحَ لِلْهِنْدِيَّــــةِ البِــــيض مَرْتَعــــا

6- **أن يذكر المصراع الأول ويكون مُعَلقاً على صفة يأتي ذكرها في أول المصراع الثاني، ويسمى: التصريح المعلق، كقول الشاعر:**

ألا أيّهــا اللّيــلُ الطويــلُ ألا انْجَلِــي بصُــبْحٍ، ومــا الإِصْـبَاحُ مِنــكَ بأمثَــلِ

فإن المصراع الأول معلق على قوله (بصبح)

7- **أن يكون التصريع في البيت مخالفاً لقافيته، ويسمى: التصريع المشطور، وهو أنزل درجات التصريح وأقبحها، ومن ذلك قول أبي نواس:**

أقلنــي قــد نــدمت علــى الــذنوب وبــالإقرار عُــذْتُ مــن الجحــود

إذ صرع بحرف الباء، ثم قفاه بحرف الدال، وهذا لا يكاد يستعمل إلا قليلاً نادراً.

الموازنة – (التقسيم)

أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية، ومن الموازنة قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118)﴾ [الصافات: 117-118]، وهذا الأسلوب كثير في كتاب الله، وذكر ابن الأثير أنه يختص بالمنثور، غير أنه عاد وذكر له قول ربيعة بن ذؤابة:

إن يقتلــوك فقــد ثللــتَ عروشَــهم بعتيبــةَ بــن الحــارث بــن شــهاب

بأشـــدِّهم ضـــراً علـــى أعـــدائهم وأعـــزِّهم فقـــداً علـــى الأصـــحاب

يختص بالموازنة البيت الثاني؛ إذ أن (بأساً – فقداً) على وزن واحد.

ومنه قول البحتري:

فــأحْجَم لمــا لــم يجِــدْ فيــك مَطْعَمــاً وأقــدم لّمــا لــم يجــد عنــك مهربــا

فـ (المهرب – المطمع) متماثلان في الزنة.

لزوم ما لا يلزم

سمّاه بعضهم الالتزام والتضيق والتشديد والإعنات، وعَدَّه ابن المعتز من محاسن الكلام، وقال عنه: «من إعنات الشاعر نفسه في القوافي، وتكلفه من ذلك ما ليس له».

وقال ابن الأثير: «وهو من أشق هذه الصناعة مذهباً، وأبعدها مسلكاً، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه، فإنّ اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه إنما هو: السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنشور في قوافها، وهذا فيه زيادة على ذلك، وهو: أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفاً واحداً، وهو في الشعر: أن تتساوى الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية».

ومن أمثلة التزام الحروف قول عروة:

إِن الَّتِـــي زعمـــت فُـــؤَادك ملهـــا ... خلقـت هَـوَاك كَمَـا خلقـت هـوى لَهَـا

بَيْضَـــاء باكرهـــا النَّعـــيم فصـــاغها ... بلباقـــــة فأدقهـــــا وأجلهـــــا

حجبـــت تحيتهـــا فَقلـــت لصـــاحبي ... مَـــا كَـــانَ أَكْثَرهَـــا لنـــا وأقلهـــا

وكان هذا الفن في العهود الأولى يأتي متصلاً منقاداً في البيتين والثلاثة بل في العشرين، ولكن المتأخرين أسرفوا في استعماله، وقد نظم أبو العلاء المعري ديوانا سماه: (اللزوميات)، والتزم فيه بهذا الفن كل الالتزام، ومن ذلك قوله:

بنـــتُ عـــن الـــدنيا ولا بنـــتَ لـــي ... فيهـــــا ولا عِـــــرسٌ ولا أخـــــت

وقـــد تحملْـــتُ مـــن الـــوزر مـــا ... تعجـــــز أن تحملـــــه البُخْـــــت

إن مـــدحوني ســـاءني مـــدحهم ... وخلـــت إنـــي فـــي الثـــرى ســـخت

ولكن هذا الفن يكون متكلفاً إذا أسرف الشاعر في استعماله، وقد فرّق ضياء الدين ابن الأثير بني المتكلف وغير المتكلف، فالمتكلف هو: الذي يسعى الشاعر الى طلبه، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره، أما غير المتكلف يأتي مستريحاً من ذلك كله، بمعنى: أنه يأتي للكاتب أو الشاعر بالاتفاق لا بالسعي والطلب.

هذه هي المحسنات اللفظية، والتي يكون التحسين فيها راجعاً إلى اللفظ أصالة، وإن اختلف المعنى أحياناً.

ويلحق بهذه المحسنات: ما يلحق بالجناس قبل الاشتقاق، الذي تكون فيه اللفظتين من جذر لغوي واحد مع الاختلاف في المعنى، ثم ما يلحق بالاشتقاق، القلب، التشريع، السرقات الشعرية، وما يتصل بها، مثل الاقتباس والتضمين، العقد والحل، والتلميح، ولا ضير هنا بأن نعرّف تعريفاً يسيراً بهذه الفنون البديعية:

- ما يلحق بالاشتقاق، وهو: ما يوهم أنه من أصل لغوي واحد وهو غير ذلك، من أمثلة الاشتقاق قوله تعالى: ﴿**قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168)**﴾ [الشعراء: 168]، فالأول: من القول، والثاني: من قلى، أي: الكره. أما الملحق بالاشتقاق، فمثاله قوله –تبارك وتعالى–: ﴿**وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54)**﴾ [الرحمن: 54].
- القلب، هو: أن يكون الكلام بحيث لو عكس وبدئ بحرفه الأخير إلى الأول لم يتغير الكلام عما كان عليه، ويكون في الشعر والنثر، كقوله تعالى: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3)**﴾ [المدثر: 3]، وقول الكاتب للقاضي الفاضل: «سر فلا كبا بك الفرس».
- التشريع، هو: بناء البيت على قافيتين يصح المعنى إذا وقفت على كل واحدة منهما.

- السرقات الشعرية، وهذه قضية نقدية قديمة، والخوض فيها يحتاج إلى بحث مستقل، أما علاقتها بعلم البديع فهي من حيث أنواع السرقات كالسلخ والنسخ والإغارة.
- الاقتباس، وهو: أن يضمن المتكلم منثوره أو شعره شيئاً من القرآن أو الحديث دون أن يشير إلى ذلك، مع المحافظة على شخصية الكاتب أو الشاعر، كقول الشاعر:

﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ وأميز صحيح القول من عليله

علماً أن مثل هذا قد يكون من الموروث الأدبي عموماً، وكذا من الأمثال والحكم، إلا أن ذلك يسمى: الاقتباس غير المباشر الذي يرد من حيث استهام المعاني، ومن الاقتباس من الشعر قول الحريري:

على أني سأُنشِدُ عندَ بيْعي أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا

- العقد، هو: نظم المنثور لا على جهة الاقتباس، ومن شروطه: أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد النظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر، كقول الشاعر:

إن القلوب لأجناد مجندة بالأذن من ربها تهوى وتأتلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

من حديث الرسول الكريم –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ)).

- الحل، هو: نثر النظم، بشرط: جودة السبك، وحسن الموقع، كقولهم: «لم يزل سوء الظن يقتاده، ويصدّق توهمه الذي يعتاده، فإنه حل قول المتنبي:

إِذَا سَــاءَ فِعْــلُ الْمَــرْءِ سَــاءَتْ ظُنُونُــهُ   وَصَــــدَّقَ مَـــا يَعْتَـــادُهُ مِـــنْ تَـــوَهُّمِ

- التلميح، هو: أن يشير الشاعر أو الناثر في قرينة سجع أو بيت شعر إلى قصة معلومة أو نكتة مشهورة أو مثل أو حكمة، أي: لا يقتبس، بل يشير أو يلمح إلى معنى كقول الشاعر:

يوســـــف إن قطــــع أيـــدٍ فقـــد   قطعـــــــت بـــــــالعيون أكبادنـــــــا

ثانياً: المحسنات المعنوية:

وهي: التي يكون التحسين راجعاً إلى المعنى أولاً وبالذات، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضاً، وهي كثيرة، وسوف نقف على أهمها:

المطابقة

وتسمى: الطباق والتطبيق والتكافؤ والتضاد، وهي: الفن الثالث من بديع ابن المعتز.

تعريفها لغة: الجمع بين الشيئين المتضادين.

واصطلاحاً: الجمع بين معنيين متقابلين، سواء أكان ذلك التقابل تقابل تضاد إيجاب أو السلب، وما أشبه ذلك، وسواء كان ذلك المعنى حقيقياً أو مجازياً.

وطباق الإيجاب هو: ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، ﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**﴾ [الكهف: 18].

أما طباق السلب فهو: ما اختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً، مثل: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: 9]، وأحب الصدق لا الكذب.

ويكون الطباق أما بلفظين من نوع واحد:

أ- اسمين، كقوله تعالى: ﴿**لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [الأحزاب: 43]، ومنه قول الشاعر:

فلـــه ابتســـامٌ مـــن لوامـــع برقـــه ولـــه بكـــاء مـــن ودقـــة المتســـرِّب

وقول الفرزدق:

وَالشَّــيْبُ يَــنْهَضُ فــي الشَّــبَابِ كأَنَّـــهُ   لَيْـــلٌ يَصِـــيحُ بجَانِبَيْـــه نَهَـــارُ

ب- أو فعلين، كقول الحق سبحانه: ﴿**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ**﴾ [آل عمران: 26]، وقول الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- للأنصار: ((إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع))، ومنه قول أبي صخر الهذلي:

أَمَــا وَالَّــذِي أَبْكَــى وَأَضْــحَكَ وَالَّــذِي   أَمَــاتَ وَأَحَيْــا وَالَّــذِي أَمْــرُهُ الأَمْــرُ

ج- أو حرفين، كقوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: 286]، وقول الشاعر:

رَكبنَــا فِــي الهَــوَى خَطَــرًا فَإِمَّــا   لنَــا مَــا قَــد كَسَــبنَا أَو عَلَينَــا

هذا وقد ألحق الخطيب القزويني بالمطابقة أو التضاد ما يسميه: (إيهام التضاد)، وهو: أن يوهم لفظ الضد أنه ضد، مع أنه ليس كذلك، كقول الشاعر:

لَا تَعْجَبِــي يَــا سَــلْمُ مــن رَجُــلٍ   ضَــحِكَ المَشِــيبُ برأسِــهِ فَبَكَــىَ

فإنّ الضحك هنا استعارة، أي: من جهة المعنى، وليس ضد البكاء، أي: من حيث اللفظ يوهم المطابقة، وقول الشاعر:

لــه منظَــرٌ فــي العــينِ أَبْـيضُ ناصِــعٌ   ولكنَّــهُ فــي القلــبِ أسْــودُ أسْــفَعُ

يراد بالسواد هنا: أنه مؤذٍ مؤلم لا اللون الذي هو ضد الأبيض، أي: أنه من جانب اللفظ يوهم بالمطابقة، ولكنه ليس كذلك.

وتعد المطابقة من مقومات التعبير؛ لأنها تعتمد على عرض الأضداد والمتناقضات؛ لذا فهي ليست محسناً، وإنما هي وسيلة من وسائل التعبير.

المقابلة

أدخلها بعض البلاغيين من المتقدمين في المطابقة، كابن الأثير، والخطيب القزويني، الذي قال: «ودخل في المطابقة ما يُخص باسم المقابلة، وهو: أن يؤتى بمعنين متوافقين أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب»، ولكن ابن حجة الحموي قال: «وهو غير الصحيح، فإن المقابلة أعم من المطابقة، وهي التنظير بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق، فبقولنا (وما يوافق) صارت المقابلة أعم من المطابقة، فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة».

وفرَّق البلاغيون بين المطابقة والمقابلة من وجهين:

الأول: إن الطباق لا يكون إلا ضدين غالباً، كقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ [الحج: 66]، والمقابلة تكون غالباً بالجمع من أربعة أضداد: ضدين في أصل الكلام، وضدين في عجزه، وتبلغ إلى الجمع من عشرة أضداد: خمسة في الصدر، وخمسة في العجز.

الثاني: لا يكون الطباق إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها، أو تأتي المقابلة على أنواع منها:

- مقابلة اثنين باثنين، كقوله تعالى: ﴿**فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا**﴾ [التوبة: 82]، وقول النابغة:

فتـــى تـــمّ فيـــه مـــا يســـرّ صـــديقه   علـــى أنّ فيـــه مـــا يســـوء الأعاديـــا

- مقابلة ثلاثة بثلاثة، كقوله تعالى: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ [الأعراف: 157]، وقول المتنبي:

فَـلا الْجُـودُ يُفْنِــي الْمَــالَ وَالْجَـدُّ مُقْبِـلٌ   وَلا الْبُخْــلُ يُبْقِــي الْمَــالَ وَالْجَـدُّ مُـدْبِرُ

- مقابلة أربعة بأربعة، كقول الحق سبحانه: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10)**﴾ [الليل: 5-10]، ومنه قول أبي تمام:

يَـا أُمـةً كَـانَ قـبحُ الْجـور يسـخطها   دَهـراً فَأصْـبح حسـنُ الْعـدْل يرضـيها

- مقابلة خمسة بخمسة، كقول المتنبي:

أزورُهــمْ وســوادُ اللَّيــل يشــفعُ لـــي   وأنثنــي وبيــاضُ الصُّــبحِ يُغــري بـــي

- مقابلة ستة بستة، كقول الشاعر:

علـــى رَأس عبــدٍ تــاجُ عِــزٍّ يزينــهُ   وَفِــي رِجْــلِ حــرّ قيــد ذُلٍّ يَشــينهُ

هذا وتأتى بلاغة المقابلة إذا استعملت في موضعها كانت جميلة وبديعة، وهي والمطابقة تزيد المعنى وضوحاً، أما إذا استعملت في غير موضعها كانت فاسدة نابية، وقد أشار قدامة بن جعفر إلى ذلك ونظم عن فساد المقابلات.

لمن أراد الاستزادة بالشواهد البلاغية، ينظر: نقد الشعر؛ لقدامة بن جعفر البغدادي (ص: 229).

مراعاة النظير – (الشبيه والتشابه)

ويسمى: التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤخاة، وهو: أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه لا بالتضاد لتخرج المطابقة، سواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى، أو لفظاً للفظ، أو معنى لمعنى، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه، أو يلائمه من إحدى الوجوه.

ويكون الجمع بين معنين أو أكثر هنا على أساس التقارب في المعنى، أما في الطباق أو المطابقة يكون الجمع على سبيل التضاد، وهذا موجود في الشعر والنثر، وفي القرآن الكريم والحديث الشريف، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5)**﴾ [الرحمن: 5]؛ إذ جمع بين الشمس والقمر في تناسب من أنهما متناظرتان في النور والضياء، وإلى مما ذلك في الدلالة، ومن ذلك قول البحتري يصف إبل أنحلها السير:

كالقسي المعطّفات بل الأسـ ـهم مبرية بل الأوتار

فإنه لما شبه الإبل بالقسي وأراد أن يكرر التشبيه، كان يمكنه أن يشبهها بأمور أخرى تلائمها في المعنى، وهو الانحناء والرقة، ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار؛ لما تقدم ذكر القسي، ومنه قول الشاعر:

الْخَيل وَاللَّيْل والبيداء تعرفنِي وَالسيف وَالرمْح والقرطاس والقلم

تناظر بين السيف والرمح من حيث الاستعمال، فهما من أدوات الحرب، وكذا الأمر بين القرطاس والقلم كأداتين للكتابة، أما مفردات الخيل والليل في معرض الافتخار بالفروسية، ثم البيداء لا يعرفها الا الفارس، والليل بظلمته الشديدة الموحشة، لو نظرنا إلى هذه الألفاظ فإنه يجمعها مظاهر متناظره متقاربة.

كما أن العرب تشبه بالمسك والعنبر؛ لتناظر المعنى والمفردات، وكمثل قولنا: «أنت إسماعيلي الوعد، شعيبي التوفيق، يوسفي العفو، محمدي الخلق»، فإن ذكر جماعة الأنبياء –عليهم السلام–، وذكر معهم مجموعة صفات خلقية بينهما تناظر، وفيه من التفصيل والشمول ختم بمدح الرسول –صلى الله عليه وسلم–، وهي جملة معاني رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–.

ومما يلحن بمراعاة النظير: تشابه الأطراف، وتشابه الأطراف يعني: أن يختم الكلام بما يناسب أوله من حيث المعنى، كقوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)**﴾ [الأنعام: 103]، فإن اللطف يناسب ما لا يدرك بالبصر، والخيرة تناسب من يدرك شيئاً يكون خبيراً به؛ لأن الخبير من له علم بالخفيات فيدركها، ومنه قول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)**﴾ [الزمر: 53].

ومما يلحق به أيضاً: (إيهام التناسب)، وهو: الجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لها معنيان متناسبان وإن لم يكونا مقصودين، كقوله تعالى: ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6)**﴾ [الرحمن: 5–6]، فإن النجم هنا لا يقصد منه المعنى الحقيقي، بل هي بمعنى البنات، وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر، إلا أنه قد يكون بمعنى الكوكب، وهذا يؤدي إلى التناظر ببنها؛ لذا سمي هذا الفن (إيهام التناسب).

المبالغة – آراء العلماء فيها، أقسامها

سماها ابن المعتز في بديعه (الإفراط في الصفة)، وهو أحد محاسن الكلام والشعر.

أما قدامة بن جعفر فقد سماها (المبالغة)، وسار أكثر البلاغيين والنقاد على تسميته؛ لأنها أخف وأعرف من مصطلح ابن المعتز.

ويعرفها قدامة: «هي: أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأه، وذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصه له».

وهناك تعريف آخر: «هي: ادعاء بلوغ وصف في الشدة أو في الضعف حداً مستحيلاً أو بعيداً».

وللبلاغيين والنقاد ثلاثة مذاهب فيها:

الأول: الرفض مطلقاً، وحجتهم: أن خير الكلام ما خرج مخرج الصدق والحق، وجاء على منهاج صادق من غير إفراط ولا تفريط، كما عبر عنه حسان بن ثابت:

وإنما الشعر عقلُ المرءِ يعرضهُ ... على الأنام فإن كيْساً وإن حمقا

وإنَّ أشعر بيتٍ أنت قائلُهُ ... بيتٌ يقال إذا أنشدته: صَدَقا

الثاني: القبول مطلقاً؛ إذ يعدونها من أجل المقاصد في الفصاحة، وأعظمها في البراعة، وحجتهم: أن خير الشعر أكذبه، أو أعذب الشعر أكذبه، وأجمل الكلام ما بولغ فيه.

الثالث: التوسط بين الأمرين، أي: أنها فن من فنون الكلام ونوع من محاسنه، ومتى كانت جارية على جهة الغلو والإغراق فهي مذمومة، وعلى هذا مذهب معظم البلاغيين والنقاء.

وأقسام المبالغة ثلاثة:

- تبليغ، ويقول ابن حجة الحموي في تعريفه: «هي: إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة»، ومن أمثلته قول الشاعر:

رهنت يَدي بِالْعَجزِ عَن شكر بره   وَمَا فَوق شكري للشكور مزِيد
وَلَو أَن شَيْئا يُسْتَطَاع استطعته   وَلَكِن مَا لا يُسْتَطَاع شَدِيد

- الإغراق، وهو: ما يكون المدعى فيه ممكن عقلاً لا عادة، ومن أمثلة الإغراق قول الشاعر:

قَالُوا وينظم فارسين بطعنةٍ   يَوْم اللِّقَاء وَلَا يرَاهُ جَلِيلًا
لَا تعجبوا فَلَو أَن طول قناته   ميلٌ إذن نظم الفوارس ميلًا

ففي البيت الأول ادعى طعن فارسين برمية واحدة، وهذا ممكن، وجاء في البيت الثاني بحرف لو للتخفيف من الإغراق؛ إذ لو كان طول الرمح ميلاً لاستطاع أن ينظم فارسين أو أكثر على مساحة الميل، وهذا النوع من الإغراق كما يقولون: مقبول عقلاً.

ومن الإغراق الممكن قول الشاعر:

ونكرمُ جارنَا ما دامَ فينَا   ونتبعهُ الكرامةَ حيثُ مالا

وقول الشاعر:

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشّمسِ من كَرمٍ   قومٌ بأَوَّلِهم أو مَجْدِهِم قَعَدُوا

ومنه قول المتنبي:

روحٌ تــــردَّدُ فـــي مثـــلِ الخيـــال إذا أطــارتِ الــريحُ عنــه الثــوبَ لـم يــبنِ

كفــى بجســمي نحــولاً أنَّنــي رجــلٌ لـــولا مخـــاطبتي إيـــاكَ لـــم ترنـــي

الغـــلـــو

وهو: الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عادة وعقلاً، وهو نوعان:

أ- مقبول. ب- غير مقبول.

أما المقبول فما قرب بإحدى الصيغ الدالة على قبول العقل، ومن هذه الصيغ: (قد، ولولا، وكاد)، ولم يقع شيء من ذلك في كتاب الله أو الشعر الرائع إلا كان مقروناً بما يخرجه من باب الاستحالة ويدخله في باب الإمكان، كقوله تعالى: ﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43)**﴾ [النور: 43]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**﴾ [القلم: 51]، ومنه قول الشاعر:

تكـــاد قســـيّه مـــن غيـــر رام تمكـــن مـــن قلـــوبهم النبـــالا

تكـــاد ســـيوفه مـــن غيـــر ســـل تجـــد إلـــى رقـــابهم انســـلالا

ومن الغلو غير المقبول:

أضـــاءَتْ لَهُـــم أحْسَـــابُهُمْ ووجُـــوهُهم دُجَـى اللَّيـلِ حتَّـى نَظَّـم الجَـزْعَ ثاقِبُـهْ

أي: أن القوم يعتدون بأحساب شريفة كريمة ووجوه مشرقة أذهبت ظلمة الليل؛ مما جعل ناظم الخرز ينظم القلادة بسبب شدة ضياء وجوههم، وهذا غير ممكن عادة وعقلاً، أي: أن الغلو جاوز الحد الممكن.

ومن الغلو المردود قول الشاعر:

وأخَفْـــتَ أهْـــلَ الشِّـــرك حَتَّـــى إنَّـــهُ لتَخَافُـــكَ النُّطَـــفُ الَّتِـــي لـــم تُخْلَـــقِ

قلنا: من الغلو غير المقبول: ما يكون في مجال المدح، كما مر في البيت السابق، أو في مجال الفخر، كقول الشاعر:

كَـأنِّي دَحَـوْتُ الأرْضَ مِـنْ خِبْرَتِـي بِهَـا   كـأنِّي بَنَـى الإسْـكَنْدَرُ السـدَّ مِـنْ عَزْمِـي

وهناك من الغلو ما يصطدم بحقائق دينية وأخلاقية، من ذلك قول أبي نواس:

مَـــا شِـــئْتَ لَا مَـــا شَـــاءَتِ الأقْـــدَارُ   فَـــاحْكُمْ فأنْـــت الوَاحِـــدُ القَهَّـــارُ

وكذا قوله في مدح الأمين:

يَـــا نـــاق لَا تســـأمي أَو تبلغـــي ملكـــاً   تَقْبِيـــل رَاحَتـــه والـــرّكن ســـيان

وكذلك قول آخر:

ســر حيــث شــئت لــك المُهَــيْمنُ جــارُ   واحكُـــمْ فطَـــوْعُ مُـــرادك الأقـــدارُ

ومن الغلو في الهجاء قول الشاعر:

أنحفـت جسـمك حتـى لـو هممـت بـأن   ألهـو بصـفعك يومـاً لـم تجـدك يـدي

حلل الشواهد الآتية:

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)**﴾ [الحج: 2].

وقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39)**﴾ [النور: 39].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (**10**)﴾ [الأحزاب: 10].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (**35**)﴾ [النور: 35].

التورية – الإيهام – التخير

التورية في اللغة هي: مصدر واريت الخبر إذا سترته وأظهرت غيره، كأن المتكلم يجعله وراءه.

واصطلاحاً: أن يذكر المتكلم لفظاً له معنيين، أحدهما قريب، ودلالة اللفظ عليه واضحة، والآخر بعيد، ودلالة اللفظ عليه خفية، ويريد المعنى البعيد، ويواري عنه بالقريب، فيتوهم السامع لأول وهلة أنه يريده، وهو ليس بمراد.

ولا بد في التورية من قرينة خفية تدل على إرادة المعنى البعيد، كقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)**﴾ [طه: 5].

للاستواء معنيان:

أحدهما: الاستقرار في المكان، وهذا المعنى القريب الموارى به الذي هو غير مقصود؛ لأن الله سبحانه تنزه عن ذلك.

المعنى الثاني: الاستيلاء والملك، وهو المعنى البعيد المقصود الذي وارى عنه بالقرينة المذكورة.

وكقوله تعالى: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح: 10]، فاليد هنا يقصد بها: القدرة، وليس اليد الجارحة.

مثال آخر: ((هادٍ يهديني))، فظاهر القول، يعني: الطريق، والمعنى المقصود: الهداية إلى الإسلام.

ومنه قول الشاعر:

وصَاحِب لمَّا أَتَاهُ الْغِنَى ... تَاهَ ونَفْسُ الْمَرْءِ طَمَّاحَهْ

وَقيلَ: هَلْ أبْصَرْتَ مِنْهُ يداً ... تَشْكُرُها قُلْتُ وَلَا رَاحَهْ

فإن للراحة هنا معنيان: المعنى القريب، وهو: الكف؛ إذ يتبادر هذا المعنى إلى الزهن بقرينة اليد، والمعنى البعيد وهو المراد، وهو: ضد التعب.

حلل الشواهد الآتية:

قال تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**﴾ [الذاريات: 47].

قال الشاعر:

يـــا خـــالق حملـــت الـــورى ... لمـــا طغـــى المـــاء علـــى جاريـــة
وعبـــدك الآن طفـــى مـــاؤه ... فـــي الجسـم فاحملـه علـى جاريـة

وقال آخر:

أقلعـــت عـــن رشـــف الطـــلا ... واللـــثم فـــي خـــد الحبـــب
وقلـــت هـــذي راحـــة ... تســـوق للقلـــب التعـــب

ومن التورية قول المتنبي:

بِـرَغْمِ شَـبِيْبٍ فَـارَقَ السَّـيْفَ كَفُّـهُ ... وكانَـا علـى العِـلَاّتِ يَصْـطَحِبَانِ
كَـأَنَّ رِقَـابَ النَّـاسِ قَالـتْ لِسَـيْفِهِ: ... رَفِيْقُـكَ قَيْسِـيٌّ وأَنْـتَ يَمَـانِي

وقد ذكر ابن حجة أن المتنبي أول من كشف غطاء التورية، وجلا ظلمة إشكالها ببيتيه السابقين، وهذا صحيح؛ لأن القدماء لم يهتموا بها كثيراً، وإن وردت في كلام العرب قبله، ولكن المتأخرين عنوا بها عناية كبيرة، ووشحوا بها كلامهم، ووضعوا فيها المؤلفات.

والتورية من الفنون التي تحتاج إلى معرفة واسعة، وإدراك عميق، وربط بين المعاني والصور، وهي بذلك من الفنون التي تخدم الأديب حينما لا يريد الإفصاح عن مغزاه، ولولا ما لحق بها من إسراف لظلت فناً جميلاً يستعين به الأدباء في التعبير.

المذهب الكلامي

من الفنون الذي ذكرها ابن المعتز في بديعه، وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ: المذهب الكلامي، وهو ينسب إلى التكلف، ولم يحدد الجاحظ معنى هذا الفن، ولعله يريد به: اصطناع أساليب الفلاسفة والمتكلمين في الجدل والاستدلال؛ لذا نفاه عن القرآن الكريم.

ومن التسمية، أي: المحاجة على طريقة أصحاب المنطق والكلام، وربط الكلام بأسلوب له دلالات.

وهذا الفن من البديع بجده لدى من التزم مجالس المعتزلة الذين اشتهروا بالمناظرة؛ إذ يكثر عندهم لتقوية الحجة أو رفضها.

تحدث عنه أبو هلال العسكري في كتابه: (الصناعتين)، عن وضوح الدلالة، وقرع الحجة، وهو ما يدخل في هذا الباب، كقوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)**﴾ [يس: 78-79]، فهذه الآية واضحة الدلالة على أن الله سبحانه قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها؛ لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء.

ثم قال تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)**﴾ [يس: 80]، فزادها شرحاً وقوة؛ لأن من يخرج النار من أجزاء الماء وهما ضدان ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)﴾ [يس: 81]، فقواها أيضاً، وزاد في شرحها، وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد؛ لأن إعادة الخلق ليس بأصعب في العقول من خلق السماوات والأرض ابتداء.

وقال ابن رشيق القيرواني عن المذهب الكلامي: إنه مذهب كلامي فلسفي؛ لذا سماه بعضهم: الاحتجاج النظري.

وعرّفه الخطيب القزويني بقوله: «هو: أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام، وذكر له أمثلة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

أما الزركشي فقد أخذ على ابن المعتز إنكاره لوجود هذا الأسلوب في القرآن الكريم، وهو من أساليبه.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76)﴾ [الأنعام: 76].

ومنه قول الفرزدق:

قد قلت إذْ مدحوا الحياةَ فأكثروا ... للموتِ ألفُ فضيلةٍ لا تعرفُ

فيها أمانُ لقائهِ بلقائهِ ... وفراقُ كلِّ معاشرٍ لا يُنصِفُ

يرد الشاعر على الذين مدحوا الحياة وأكثروا في ذلك، وساق رده عليهم بحجج عقلية تؤيد فضل الموت، منها: لقاء الله –سبحانه وتعالى–، ويتحول الخوف إلى أمن، والتخلص من الناس عديمين الوفاء غير المنصفين؛ لذا يكون الموت هو المخلص.

ومنه قول الفرزدق:

لكـــل امـــرئ نفســـان: نفـــس كريمـــة ونفـــس يعاصـــيها الفتـــى ويطيعهـــا

ونفســـك مـــن نفســـيك تشـــفع للنـــدى إذا قـــل مـــن أحـــرارهن شـــفيعها

يريد الشاعر أن يصل إلى أن الممدوح هو أكرم الناس، فيقول: لكل إنسان نفسان: نفس كريمة تأمر بالخير، ونفس تأمر بالشر فيعصيها مرة ويطيعها أخرى، وأنت نفسك الأمارة إذا أمرتك برك الكرم شفعت النفس الكريمة في الحالة التي يقل الشفيع في الكرم من النفوس، وهذه الحجة تقود إلى أنه أكرم الناس وأجدرهم بالمدح والثناء.

تطبيق: **حلل الشواهد الأتية**:

قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: 27].

وقول الشاعر يمدح أميراً قد احتجب:

لَـيْسَ الحجَـابُ بِمُقْـصٍ عنْـكَ لـي أَمَـلاً إن السَّـــماءَ تُرَجَّـــى حِـــينَ تَحْتَجِـــب

حسن التعليل

يعد حسن التعليل عند عبد القاهر الجرجاني نوع من التخيل.

وهو: أن يدعي الشاعر أو الناثر لشيء عِلّة مناسبة غير العلة الحقيقية على جهة الاستظراف، وذلك لإبهام تحقيقه وتقديره، ومن ذلك قول الشاعر:

وَمَـــا كُلْفَـــةُ البَـــدْرِ المُنيـــرِ قَديمـــةً   ولَكِنَّهَـــا فِـــي وَجْهِـــهِ أَثَـــرُ اللَّطْـــمِ

فالكلفة هي: السواد الموجود في البدر وهي قديمة فيه، أما العلة الجديدة التي علل بها الشاعر وجود هذا السواد فإنها أثر اللطم، بمعنى: أن البدر يشبه الإنسان.

ومنه قول بشار بن برد:

لَـــيْسَ يُعْطِيـــك لِلرَّجَـــاءِ وَلَا لِلْحَـــ   ـــمْدِ لَكِـــنْ يَلَـــذُّ طَعْـــمَ الْعَطَـــاءِ

كان المعطي الذي يُسدي العطايا بهدف أن يحمد ويمدح ويثني عليه الناس، أما العطايا التي يعطيها اليوم فلشيء غير السابق، أي: أنه يستلذ بالعطايا، ويشبع نزعة في نفسه؛ إذ علل الشاعر هذا السلوك تعليل حسن.

وكقول الشاعر:

يَـــا وَاشِـــياً حَسُـــنَتْ فِيْنَـــا إِسَـــاءَتُهُ   نَجَّـــى حِـــذَارُكَ إِنْسَـــانِيْ مِـــنَ الْغَـــرَقِ

أي: أن السكوت عن الواشي ممكن تحمله، لكن الوشاية سلوك يخالف أعراف الدين والقيم الأخلاقية، عقب على ذلك بأخذ الحيطة والحذر من الواشي أدى ذلك إلى الامتناع عن البكاء، فسلم إنسان عينيه من الفرق في الدموع.

ومنه قول الشاعر:

لـــم تحْـــكِ نائِلَـــكَ السّـــحابُ وإنمـــا   حُمّـــتْ بـــه فصَـــبيبُها الرُحَضـــاءُ

إن كثرة عطايا الممدوح وكرمه جعلت السحاب تسقط المطر؛ إذ إنها أصيبت بالحمة من كثرة البذل، فكانت كالعرق الذي يتصبب من جسم المحموم.

حلل ما يأتي:

مـــا بِـــهِ قَتْـــلُ أعَاديـــهِ ولكِـــنْ   يَتَّقِـــي إخْـــلَافَ مـــا تَرْجـــو الـــذِّئَابُ

ومنه قول أبي تمام:

لا تُنْكـرِي عَطَـلَ الْكَـرِيمِ مِـنَ الغِنَـى   فالسَّـــيْلُ حَـــرْبٌ لِلْمَكـــانِ العَـــالِي

ومنه قول أبي العباس الضبي:

لا تــــــركننَّ إلـــــى الفـــــرا   قِ وإن سَـــــكَنْتَ إلـــــى العِنَـــاقِ

فالشــــــمسُ عِنْــــــدَ غروبهـــــا   تصـــــفَرُّ مـــــن فَـــــرَقِ الفِـــراقِ

وبعد فإن بلاغة حسن التعليل تتأتى من كونه مجال يكون للخيال نصيب كبير فيه، فضلاً عن أنه من الأساليب التي يعتمد عليه الشعراء في توليد وبناء الصور التي تأخذ من الخيال أجزاءها.

هذا وقد أحسن القدماء استعماله، كما يعد في كل زمان وسيلة من وسائل إثراء التعبير، بشرط أن يحسن الشاعر أو الكاتب استعماله، وأن يكون وراء هذا الاستعمال هدف واضح وإيحاء مؤثر.

الاستطراد

وقد عرفه ابن حمزة العلوي اليماني بقوله: «هو: أن يشرع المتكلم في شيء من فنون الكلام، ثم يستمر عليه فيخرج إلى غيره، ثم يرجع إلى ما كان عليه من قبل»، أي: هو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينما يمر به يأخذ في معنى آخر وقد جعل الأول سبباً إليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79)**﴾ [الإسراء: 78-79]، فإن قوله تعالى: ﴿**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ**﴾ [الإسراء: 78] من الاستطراد الرائق؛ لأنه خرج من ذكر الليل إلى ذكر قرآن الفجر، ثم عاد بعده إلى ذكر الليل، وهذه هي فائدة الاستطراد وحقيقته.

ومنه قول الشاعر:

وإنَّا لقومٌ لا نرى القتلَ سبَّةً   إذا ما رأته عامرٌ وسلُولُ

إذ افتخر بقومه، ثم هجا عامراً وسلولاً، ثم عاد بعد ذلك إلى الفخر، فقال:

يقرِّبُ حبُّ الموتِ آجالَنا لنا   وتكرههُ آجالهمْ فتطُولُ

ومنه قول الشاعر أبي بكر النطاح:

عَرَضْتُ عليها مَا أَرَادَتْ مِنَ المُنَى   لِتَرْضى فَقَالَتْ: قُمْ فَجِئْنِي بِكَوْكَبِ

فَقُلْتُ لَهَا: هَذَا التَّعَنُّتُ كُلُّهُ   كَمَنْ يَتَشَهَّى لَحْمَ عَنْقَاءَ مُغْرِبِ

سَلِي كُلَّ أمْرٍ يَسْتَقِيْمُ طِلَابُهُ   وَلَا تَذْهَبِي يا دُرُّ بِي كُلَّ مَذْهَبِ

فَأُقْسِـمُ لَـوْ أَصْـبَحْتُ فِـي عِـزِّ مَالِـكٍ وَقُدْرتِــهِ أعْيَــا بِمَــا رُمْــتِ مَطْلَبِــي

فتـــى شَـــقِيَتْ أمْوَالُـــهُ بِأكُفِّـــهِ كَمَــا شَــقِيَتْ قَــيْسٌ بِأرْمَــاحِ تَغْلِــبِ

ويعد الاستطراد هنا من أجمل وأروع ما قيل في هذا الفن؛ إذ إنه جمع أحسن قسم، وأبدع تخلص، وتضمن مدح الممدوح بالكرم وعشيرته بالشجاعة والظفر، وهجاء أعدائهم بالضعف والوهن واللؤم.

تأكيد المدح بما يشبه الذم

من الفنون البديعية التي ذكرها ابن المعتز في بديعه، وهو عنده من محاسن الكلام، وسماه بعض البلاغين: (الاستثناء)؛ لأن حسنه المعنوي من أثر أداة الاستثناء التي يُبنى عليها، وهو على ضروب ثلاثة:

- الأول: يبدأ بالمدح ونفي صفة، ثم يأتي بأداة استثناء، فيتوهم السامع أنه سوف يأتي بذم، إلا أنه يعود ويؤكد صفة أخرى من المدح، كقول الشاعر:

ولا عيـــبَ فـــيهِمْ غيـــرَ أنَّ سُـــيُوفهُمْ بهـــنَّ فُلُـــولٌ مـــن قِـــراعِ الكتائِـــبِ

إذ بدأ بالمدح فنفى عن القوم كل عيب، وجاء بعده بالاستثناء ليوهم السامع أو المتلقي بأنه سوف يذكر صفة ذم، إلا أنه أكد المدح السابق بمدح آخر، وهذا يسمى بتأكيد المدح بما يشبه الذم.

ومنه قول الشاعر:

لَـــيسَ بِـــهِ عَيْـــبٌ سِـــوَى أنّـــه لا تَقَـــعُ الْعَـــيْنُ عَلَـــى شِـــبْهِهِ

فقد نفى عن المخاطب النقص، ثم ذكر أداة الاستثناء ليوهم بأنه سوف يذكر عيباً أو نقصاً، ولكنه أكد المدح السابق بمدح لاحق، فإن المخاطب ليس له نظير في حسنه وكمال خلقه، وهذا ما يسميه البلاغيون بتأكيد المدح بما يشبه الذم.

وفيما سبق نجد أنه يؤكد المدح بمدح، أي: مدح على مدح في أبهى قالب وأجمل منظر.

ومن ذلك أيضاً قول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)**﴾ [الواقعة: 25–26].

- الثاني: أن يثبت لشيء صنة مدح، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له، كقول الرسول الكريم –عليه الصلاة والسلام–: ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)).

ومنه قول الشاعر النابغة الجعدي:

فتًـــى كمُلـــتْ أخلاقُـــه غيـــرَ أنَّـــه جـــوادٌ فمـــا يُبقـــي مـــن المـــالِ باقيـــا

فقد بدأ بإثبات صفة للممدوح، ثم عقب بذكر أداة الاستثناء التي تلتها صفة مدح أخرى، وهي: صفة الجود والكرم.

ومنه قول الشاعر:

وجـــوه كأزهـــار الرّيـــاض نضـــارة ولكنّهـــا يـــوم الهيـــاج صـــخور

أثبت لهم صفة الجمال والنضارة، ثم استدرك بصفة أخرى، وهي: شجاعتهم وثباتهم ورباط جأشهم يوم الحرب، ومثل هذا الفن يسمى: إثبات المدح بما يشبه الذم.

وأصل الاستثناء في هذا النوع: أن يكون منقطعاً، لكنه باق على حاله لم يقدر متصلاً، فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثاني.

- الثالث: الاستثناء المفرغ الذي يخلو من المستثنى منه، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا**﴾ [الأعراف: 126]، ويجري الاستدراك هنا مجرى الاستثناء، كقول البديع الهمداني:

هـــو البـــدر إلا أنـــه البحـــر زاخـــر ســـوى أنـــه الضـــرغام لكنـــه الوبـــل

إذ بدأ بالمدح وساق الاستثناء ليوهم بالذم، ثم أثبت صفة مدح أخرى، ثم ساق الاستدراك ليوهم بذم، ولكنه أكد المدح السالف بمدح لاحق.

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو كالفن السابق يقوم على الاستثناء وما فيه من مباغتة، وهو ضربان:

- الأول: أن ينفي صفة مدح عن الشيء ثم يذكر أداة الاستثناء ليوهم بالمدح، لكنه يؤكد الذم السابق بذكر صفة ذم أخرى، كقولك: (فلان لا خير فيه إلا أنه يُسيء إلى من يحسن إليه)، وكقولك: (هو لا يحسن للفقراء إلا أنه يؤذي جيرانه).

فمن الشاهدين السابقين نجد أنهما يبدآن بنفي صفة ذم، ثم يأتي الاستثناء ليوهم بمدح، لكنه بعد ذلك يؤكد الذم السابق بصفة ذم أخرى، وهذا يسمى: تأكيد الذم بما يشبه المدح.

- الثاني: أن يثبت للشيء صفة ذم، ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى، مثل: (فلان فاسق إلا أنه جاهل)، ومثل: (هم نمامون سوى أنهم مغتابون).

تجاهل العارف

عرفه أبو هلال العسكري بقوله: «إخراج ما يُعرف صحته مخرج الشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً»، وسماه ابن رشيق (التشكل)، أما السكاكي فلم يقبل تسميته (تجاهل العارف)، بل سماه: (سوق المعلوم مساق غيره).

ويأتي لأغراض تحددها السياقات ومقتضى الحال الذي ترد فيه، منها:

1- التوبيخ، كقوله تعالى: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87)﴾ [هود: 87]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)﴾ [الملك: 8]، ورب العالمين يعلم ذلك، ومنه قول الخارجية في الرثاء:

أَيَا شَجَرَ الخَابُورِ مَالَكَ مُورِقاً　　كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابنِ طَرِيفِ

إذ تجاهلت الشاعرة حقيقة نظارة الأشجار مع علمها به، وتتسأل لماذا هو نظر؟ وكأنه لم يمت المرثي المقصود (الوليد)، وتذبل أوراقها، أي: أن ذلك تجاهل مع معرفة؛ لغرض التوبيخ، وإظهار شدة الجزع والحزن.

2- يكون للمبالغة في المدح، كقول البحتري:

أَلَمعُ برقٍ سرَى أمْ ضوءُ مصباحِ　　أمِ ابتسامَتُها بالمنظرِ الضَّاحِي

إن الشاعر على علم ومعرفة بأنها ابتسامة، إلا أنه تجاهل ذلك مصوراً لها بأنها لمع البرق أو ضوء المصباح، وهذا من باب تجاهل العارف؛ لغرض المبالغة في المدح.

3- وقد يأتي للمبالغة في الذم، كقول زهير:

وَمَـــا أَدْرِي وَسَـــوفَ إِخَـــالُ أَدْرِي أَقَـــومٌ آلُ حِصْـــنٍ أَمْ نِسَـــاءُ

يعلم الشاعر بأن القوم رجال، ولكنه تجاهل ذلك مبالغة في الذم؛ إذ أن لفظة قوم المستعملة تشمل النساء والرجال.

4- وقد يأتي للتدلل في الحب والغزل، كقول الأعرابي:

أيـا شـبه ليلـى مـا لليلى مريضـة وأنـــت صـــحيح إنّ ذا لمحـــال

أقـول لظبـي مـرّ بـي وهـو راتـع: أأنـــت أخـــو ليلـــى؟ فقـــال: يقـــال

ومنه قول الشاعر:

بـــاللهِ يـــا ظبيـــاتِ القـــاعِ قُلـــنَ لنـــا لـــيْلايَ مـــنكنَّ أم ليلَـــى مـــنَ البشـــرِ

5- ويأتي للتحقير، كما في قوله تعالى في حق النبي الكريم حكاية عن الكفار: **﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7)﴾** [سبأ: 7].

6- ويأتي للتعريض، كما في قوله تعالى: **﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [المائدة: 116]، وقوله تعالى: **﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62)﴾** [الأنبياء: 62].

7- ويكون للاستئناس؛ لأن المقام مقام هيبة ورهبة، كقول الحق سبحانه: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17)﴾** [طه: 17].

التجريد

وهو لغة: إزالة الشيء عن غيره.

واصطلاحاً: أن ينتزع من أمر ذي صفة أو أكثر أمراً آخر أو أكثر قبله فيها؛ لإفادة المبالغة وادعاء كمال الصفة في ذلك الأمر.

وأوضح صور التجريد هي: أن يصوغ الإنسان من نفسه نفساً أخرى، أي: يخاطب آخر، كقول الشاعر:

وَدِّعْ هُرَيْـــرَةَ إِنَّ الرَّكْـــبَ مُرْتَحِـــلُ   وَهَـــلْ تُطِيـــقُ وَدَاعًـــا أَيُّهَـــا الرَّجَـــلُ

فقد استخلص من نفسه شخصية أخرى يخاطبها في صيغة المتكلم، ثم خرج إلى صيغة المخاطب، وهذا يسمى: التجريد، ومن البلاغيين من يسميه التفات.

ومنه قول الشاعر:

أَرَاك عصـي الـدمع شـيمتك الصَّـبْر   أمـا للهـوى نهـي عَلَيْـك وَلَا أَمـر
بلَـى أَنـا مشـتاق وَعِنْـدِي لوعـة   وَلَكِـن مثلـي لَا يـذاع لَـهُ سـر

إذ جعل من نفسه في البيت الأول مخاطب، ثم عاد في البيت الثاني إلى صيفية المتكلم، وهذا يسمى: التجريد، أو الالتفات.

وهو أقسام:

- ما يكون بـ (من) التجريدية: كقولك: لي من فلان صديق حميم، أي: بلغ فلان من الصداقة حداً يصح معه أن يستخلص منه صديق آخر مثله فيه.
- ما يكون بـ (الباء) التجريدية الداخلة على المنتزع منه، نحو: لئن سألت فلاناً لتسألن به البحر، فقد بلغ في اتصافه بالجود والسماحة حتى انتزع منه بحراً فيه.
- ما يكون بدخول باء المعية على المنتزع، كقوله:

وشَـوهاء تَعْـدو بِـي إِلـى صَـارِخِ الْـوَغَى بمُسْـــتَلْئمٍ مثـــل الفَنيـــقِ المُرَحَّـــل

أي: أنها تعدو بي مع نفس الاستعداد والكمال للعدو للحرب، مستلئم أي: لابس لامة الحرب.

- ما يكون بدخول (في) على المنتزع منه، كقوله تعالى: ﴿**لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ**﴾ [فصلت: 28]؛ إذ أن جهنم هي دار الخلد، لكنه انتزع منها داراً أخرى وجعلها معدة في جهنم لأجل الكفار تهويلاً لأمرها، ومبالغة في اتصافها بالشدة.
- ما يكون بدون واسطة، أي: توسط حرفي، كقول الشاعر:

فلـــئن بقيـــت لأرحلـــنّ لغـــزوة نحـــو الغنـــائم أو يمـــوت كـــريم

فقد انتزع من نفسه شخص كريم آخر للمبالغة في كرمه، أي: إذا بقيت أفوز بحضٍ وافر أو أموت كريم.

- ما يكون بطرائف الكناية، نحو قول الأعشى:

يَـــا خَيْـــرَ مَـــن يَرْكَـــبُ المطـــيَّ وَلَا يَشْـــرَبُ كأسَـــاً بكَـــفِّ مَـــن بَخِـــلا

وقد انتزع من المخاطب الممدوح جواداً يشرب الكأس بكف الجواد الكريم على سبيل الكناية؛ لأنه عندما نفى عنه الشرب بكف البخيل، فقد أثبت له الشرب بكف الكريم، ومن الواضح أنه يشرب بكف ذاته أو نفسه، فهو ذلك الكريم.

- ما يكون بمخاطبة الإنسان لنفسه، فينتزع من نفسه شخصاً آخر مثله في الصفة، كما سبق في بداية الموضوع، ومنه قولك: (أديت الامتحان بقارئ مقتدر).

التقسيم

هو ذكر متعدد مع إضافة كل حال لما يناسبها مع التعيين، أو هو قسمة الكلام قسمة متساوية لغرض الاستقصاء، كقول الشاعر:

بَـــدَتْ قمَـــراً ومالـــتْ غُصْـــنَ بـــانٍ وفاحـــتْ عنبـــراً ورنَـــتْ غَـــزالا

ففي الشاهد الشعري ربط، ثم بين لكل حال ما يناسبها، فالظهور للضوء، والتمايل للمشي، والفوح للرائحة، والرنو للغزال، بمعنى: أنه على كل حال لما يناسبها، وستوفى الأحوال والاستقصاء، ومنه قول الشاعر:

هـم القـوم إن قـالوا أصـابوا، وإن دعـوا أجـابوا، وإن أعطـوا أطـابوا وأجزلـوا

إذ أن القول تناسبه الإصابة فيه، ومن شأن الدعوة الإجابة، ومنه قول الحق –سبحانه وتعالى–: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)**﴾ [الحاقة: 4–6]؛ إذ جاء التقسيم في الآية بـ (أمَّا) التفصيلية، ومن خلال ربط كل حدث بدلالته وحالته المناسبة، وهذا يسمى: التقسيم مع التعيين.

وكذا قول الحق –سبحانه وتعالى– في سورة الضحى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)**﴾ [الضحى: 6–8]، ففي الآيات تقسيم مع التعيين.

ومن الشواهد على التقسيم مع الاستيفاء أو الاستقصاء، أي: الذكر المناسب: قول سيدنا علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: «أحسن إلى من شئت تكن أميره، واستغني عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره».

ومنه قول المتنبي:

سَـــأَطْلُبُ حَقِّـــيْ بِالْقَنَـــا وَمَشَـــايِخٍ   كَـأَنَّهُمُ مِـنْ طُـوْلِ مَـا الْتَثَمُـوْا مُـرْدُ

ثِقَـــالٌ إِذَا لَاقَـــوْا، خِفَـــافٌ إِذَا دُعُـــوْا   كَثِيْـــرٌ إِذَا شَـــدُّوْا، قَلِيْـــلٌ إِذَا عُـــدُّوْا

ففي البيتين تقسيم مع التعيين، فالقوم الذين يمدحهم الشاعر هم: ثقال وأصحاب ثبات عند لقاء الأعداء، كما أنهم عند الاستدعاء خناف في السرعة، وعند الشدة هم كثر، وقليلي العدد عند المغانم.

ومنه قول الشاعر:

فراحـــوا فريـــقٌ فِـــي الأَسَـــارَى ومثلـــهُ   قتيـــلٌ ومثـــلٌ لَاذَ بـــالبحر هاربُـــهْ

يصف الشاعر هنا نتائج المعركة بالنسبة للفريق المنهزم، فهم على ثلاث حالات: فريق قد قتل، وفريق أسارى، أما الفريق الثالث فهم هاربون.

حلل الشواهد الآتية:

يقول أبو تمام في الهجاء والذم:

إن يَعْلَمُـــوا الْخَيْـــرَ يُخْفُـــوهُ وإن عَلِمُـــوا   شَـــرّاً أَذَاعُـــوا وَإِنْ لَـــمْ يَعْلمـــوا كَـــذَبُوا

وقول نصيب:

فَقَـــالَ فَرِيـــقُ الْقَـــوْمِ: لَا، وَفَـــرِيقُهُمْ   نَعَـــمْ، وَفَرِيـــقٌ أَيْمُـــنُ اللهِ مَـــا نَـــدْرِي

وكذا قول الرسول الكريم –صلى الله عليه وآله وسلم–: ((يا ابن آدم! ما لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت، أو لبست فأبليت، أو أكلت فأفنيت»، صدق رسول الله.

الجمع مع التفريق

هو: تشبيه شيئين أو أكثر بمشبه واحد، ولكن التفريق يكون في وجه الشبه، كقول الشاعر:

فَوَجْهُــــكَ كَالنَّــــارِ فِــــيْ ضَــــوْئِهَا وَقَلْبِــــيَ كَالنَّــــارِ فِــــيْ حَرِّهَــــا

ففي البيت نجد أن المشبهين هما: الوجه والقلب، والمشبه به واحد، وهي: النار؛ إذ جمع بالمشبه به النار، وفرق في وجه الشبه، فالأول: البهاء والضياء، والثاني: الاحتراق والحر.

وكقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾ [الإسراء: 12]، فالمشبهان: الليل والنهار، والمشبه به والذي جمع فيه (آيتين)، ثم فرق في وجه الشبه.

ومنه قول الشاعر:

وَلَمَّــا الْتَقَينــا وَالنِّقــا مَوْعِــدٌ لنــا تَعجَّــب رائــي الــدُّرِّ حُســناً ولاقِطُــهْ
فَمِــن لُؤلُــؤٍ تَجلُــوهُ عِنــد ابْتِســامِها وَمِــن لُؤلُــؤ عِنــدَ الْحَـديثِ تُسـاقِطُهْ

حلل الشاهد السابق موضحاً موضع الجمع ثم التفريق.

الجمع مع التقسيم

هو: أن تُجمع أمور عدة تحت حكم واحد ثم تقسيمها، أو تقسيمها ثم جمعها، كقول الشاعر المتنبي في مدح سيف الدولة:

حَتَّــى أقَــامَ عَلَــى أَرْبَــاضِ خَرْشَــنَةٍ تَشْـقَى بــه الــرُّومُ والصُــلْبَانُ والبِيَــعُ
لِلسَّـبْي مــا نَكَحـوا، والقَتْـل مــا ولَـدوا والنَّهْـبِ مـا جَمَعُـوا، والنَّـارِ مـا زَرَعـوا

نلحظ في البيتين: جمع ثم تفريق مع الاستيفاء، فقد جمع شقاء المقيمين في تلك البلدة، ثم قسم، فالنساء للسلب، والقتل لذراريهم أو أولادهم، والنهب لممتلكاتهم، والنار تحصد زروعهم؛ لذا فقد توافر في هذا الشاهد جمع ثم تقسيم.

وكذلك قول حسان بن ثابت:

قَــوْمٌ إِذَا حَــارَبُوا ضَــرّوا عَــدُوّهُمُ أَوْ حَـاوَلُوا النَّفْـعَ فِـي أَشْـيَاعِهِمْ نَفَعُـوا
سَـجِيّةٌ تِلْــكَ مِــنْهُمْ غَيْــرُ مُحْدَثَــةٍ إنّ الْخَلَائِــقَ فَــاعْلَمْ شَــرّهَا الْبِــدَعُ

نجد في البيت الأول تقسيم في صفات القوم الممدوحين، فهم يضرون الأعداء وينفعون الأصدقاء، ثم نجده في البيت الثاني يجمع بقوله: (سجينة) مشيراً إلى أن الاخلاق الفاضلة ما كانت غريزة وجبلة، لا ما كان مصطنعاً ومبتدعاً.

القول بالموجب

وهو نوعان:

الأول: أن تقع صفة في كلام غيرك كناية عن شيء أثبت له حكم، فتثبت أنت تلك الصفة لغير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم لذلك الغير أو نفيه، كقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (8)**﴾ [المنافقون: 8].

ففي الآية أراد المتكلم إثبات صفة العزة للمنافقين والذلة للمؤمنين، فجاء قول الحق سبحانه ونقل الصفة إلى طرف ثانٍ دون أن ينكره أو ينفي تلك الصفة، ومثل هذا الفن يسمى: القول بالموجب من النوع الأول.

ويمكن القول هنا: إن القول بالموجب في كلامنا العادي: أن المتكلم يريد أن يثبت صفة على سبيل الكناية في قوله لطرف من المتكلمين، وأنت تنقل هذا الحكم إلى طرفٍ ثانٍ دون أن تنكر صفة أو غيره.

والثاني: أي من نوعي القول بالموجب هو: الأسلوب الحكيم، ويعني الأسلوب الحكيم: نقل حكم إلى غير المعنى الذي يريده القائل، ومنه قول الشاعر:

وَقَالُوا قَدَ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ ... لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ مِنْ وِدَادِي

فهم يقولون: إن قلوبهم قد صفت للجميع، ولكنه نقل المعنى أو الحكم خلاف ما أرادوا ذكره، أي: أرادوا الصفو لكل شيء، لكنه عكس بقوله: (من ودادي)، أي: من الحب والتسامح، والتقدير: صفت من الودادي، ويسمى ذلك بالأسلوب الحكيم، الذي يعني: نقل الحكم إلى غير ما يريده القائل، وهو النوع الثاني من القول بالموجب.

فهرس الموضوعات

التمهيد: الفصاحة، البلاغة، الأسلوب 5

المسألة الأولى: الفَصَاحَةُ: 5

المسألة الثانية: البلاغة: 27

المسألة الثالثة: الأُسْلُوبُ: 34

علم البيان 47

مدخل إلى علم البيان 48

البيان في اللغة: 48

البيان في القرآن الكريم: 48

البيان في الحديث الشريف: 48

البيان عند العلماء: 49

الأسئلة: 52

التشبيه 53

أولاً: تعريف التشبيه: 53

ثانياً: أركان التشبيه: 53

ثالثاً: أداة التشبيه: 54

رابعاً: وجه الشبه: 56

خامساً: أغراض التشبيه: 57

التشبيه المقلوب 60

التشبيه الضمني 61

الاستعارة **62**

أولاً: تعريف الاستعارة: 62

ثانياً: أقسام الاستعارة:.. 62

ثالثاً: بلاغة الاستعارة: 67

الكـنـايـة **69**

أولاً: تعريف الكناية:.. 69

ثانياً: تاريخ الكناية عند علماء العربية والبلاغة: 69

ثالثاً: أقسام الكناية: 70

الحقيقة والمجاز **74**

أولاً: تعريف الحقيقة:.. 74

ثانياً: أقسام الحقيقة: 74

ثالثاً: تعريف المجاز: 75

رابعاً: أقسام المجاز: 75

خامساً: علاقات المجاز:.. 76

المجاز العقلي.. **79**

أولاً: تعريف المجاز العقلي:.. 79

ثانياً: علاقة المجاز العقلي:.. 79

علم المعاني 81

مدخل إلى علم المعاني.. **82**

تعريف علم المعاني:.. 82

واضع علم المعاني:.. 82

فائدة علم المعاني:.. 82
استمداد علم المعاني:...................................... 83
ما يبحث فيه علم المعاني:.................................. 83
نشأة علم المعاني... 84
هدف دراسة علم المعاني:.................................... 85
أثر علم المعاني في بلاغة الكلام.............................. 85
الخبر والإنشاء.. 88
أولاً: الخبر:... 88
أضرب الخبر (أنواع الخبر):.................................. **88**
الخبر الابتدائي:... 88
الخبر الطلبي:.. 89
الخبر الإنكاري:... 90
أغراض الخبر:.. **91**
الأغراض التي يخرج إليها الخبر:............................ 92
مؤكدات الخبر:.. **95**
خروج الخبر عن مقتضى الظاهر:............................. 97
ثانياً: الإنشاء.. 99
أقسام الإنشاء:.. **99**
أولاً: الإنشاء الطلبي:... **99**
تعريفه:... 99
أساليب الإنشاء الطلبي (أنواعه):............................. 99
أولاً: الأمر:...100

ثانياً: النهي:.. 103
ثالثاً: الاستفهام:.. 105
رابعاً: النداء:.. 108
ثانياً: الإنشاء غير الطلبي: **113**
تعريفه:.. 113
صيغ الإنشاء غير الطلبي:.. 113
أحوال الجملة 115
تعريف الجملة:.. 115
ركنا الجملة:.. 115
والخلاصة:.. 116
موضوعات دراسة المسند والمسند إليه **117**
التعريف والتنكير:.. 117
الذكر والحذف:.. 121
التقديم والتأخير:.. 124
القصر:.. 126
الفصل والوصل.. 130
تعريف الوصل والفصل:.. 130
مواضع الفصل:.. 130
مواضع الوصل:.. 134
الإيجاز والإطناب والمساواة.. 135
تمهيد وتقسيم:.. 135
الإيجاز **136**

أولاً: تعريف الإيجاز:...136
ثانياً: أقسام الإيجاز:...136
الإطناب...149
أولاً: تعريف الإطناب:...149
ثانياً: أنواع الإطناب وأغراضه البلاغية:...150
المساواة 163
علم البديع 165
مدخل إلى علم البديع...166
نشأة البديع وتطوره: 166
فنون علم البديع 182
مفهوم علم البديع:...183
البديعيات: 186
أولاً/ المحسنات اللفظية:...187
الجناس...187
الجناس التام: 187
الجناس الناقص:...188
رد الأعجاز على الصدور...189
شروطه:...190
السجـع 191
السجع المطرّف: 191
السجع الموازي: 191
السجع المشطر:...192

السجع المرصّع: 192
الترصيع **193**
التصريع **195**
الموازنة – (التقسيم) **198**
لزوم ما لا يلزم **199**
ثانياً: **المحسنات المعنوية**: 203
المطابقة **203**
المقابلة **205**
مراعاة النظير – (الشبيه والتشابه) **207**
المبالغة – آراء العلماء فيها، أقسامها **209**
وأقسام المبالغة ثلاثة: 210
الغــلــو **212**
حلل الشواهد الآتية: 213
التورية – الإيهام – التخير **215**
حلل الشواهد الآتية: 216
المذهب الكلامي **217**
تطبيق: حلل الشواهد الأتية: 219
حسن التعليل **220**
الاستطراد **222**
تأكيد المدح بما يشبه الذم **224**
تأكيد الذم بما يشبه المدح **226**
تجاهل العارف **227**

التجريد...229

التقسيم 231

حلل الشواهد الآتية:...232

الجمع مع التفريق...233

الجمع مع التقسيم...234

القول بالموجب...235

فهرس الموضوعات...236